البابا جريجوري الأول (الكبير): *

قراءة في دوره السياسي والديني في أوروبا (٥٩٠ ــ ٦٠٤ م)

د. هانيء عبد الهادي البشير

كلية الآداب – جامعة حلوان

جمهورية مصر العربية

يعتبر البابا جريجوري الأول Gregory the Great (٥٩٠ــ ٦٠٤م)، الذي لقب بالكبير أو العظيم من أهم باباوات روما وأعظمهم في العصور الوسطى؛ ذلك أنه وضع اللبنات الأولى لاستقلال البابوية من الناحية السياسية، وبذل جهودا مضنية لنشر المسيحية الكاثوليكية في مناطق مختلفة من أوربا، وصاغ أيضا بشكل أو بآخر المنهج الذي انتهجته البابوية لفترة طويلة من الزمن على الصعيدين الداخلي والخارجي، وأثبتت الأحداث أنه كان أهم شخصية شغلت كرسى البابوية قبل عام ١٠٠٠م. ولهذا حظيت جهوده بهذه الدراسة التي تهدف إلى إلقاء الضوء على الدور الذي لعبه على الصعيدين السياسي والديني في أوربا، خلال فترة مهمة من تاريخ الغرب الأوروبي بصفة خاصة، وتاريخ العلاقات بين غرب أوربا وشرقها بصفة عامة. إلى جانب ذلك فالمكتبة العربية تخلو ــ على حد علم الباحث ــ من بحث مستقل بذاته يعالج هذا الموضوع. ويرجع تقديم الدور السياسي على الديني في هذه الدراسة، إلى أن الدور السياسي الذي لعبه البابا جريجوري الأول كرجل دين وبذكاء رجل الدولة المحنك، كانت نتائجه مباشرة وملموسة وفاق دوره الديني في بعض الأحيان، كما فاق أيضا الدور السياسي الذي لعبه غيره من البابوات السابقين.

لقد ولد جريجوري في مدينة روما عام ٥٤٠ م من أسرة رومانية عريقة[١]. قدمت هذه الأسرة إلى مجلس السناتو أربعة أعضاء، وإلى الكنيسة الرومانية بابا واحدا

---

* لا يفوتني أن أتقدم بالشكر لأستاذي الدكتور / أسامة زكى زيد، على ملاحظاته القيمة التي أثرت هذه الدراسة وجعلتها تخرج بشكلها الحالي، كما تجدر الإشارة إلى أن الباحث اتبع في هوامش هذه الدراسة نظام المختصرات الذي ورد بشأنه دليل تم نشره في دورية:- Dumbarton Oaks Papers,26(1972), 362-365,27(1973), 329-339.

هو جده فليكس الثالث Felix III (٤٨٣-٤٩٢م). وكان أبوه جورديانوسGordianus، أميراً رومانياً عمل في الحياة المدنية وتدرج فيها حتى وصل إلى رتبة ريجوناريوس Regionarius، كما ترهبن اثنتان من عماته في يوم واحد ولذلك اعتبرتا من القديسات مثل والدته سيلفيا Silvia[٢].

وهكذا واكب ميلاد جريجوري الوقت الذي كانت فيه جحافل الإمبراطور جستنيان الأول Justinian I (٥٢٧ــ٥٦٧م) تقاتل القوط الشرقيون Ostrogoths للقضاء عليهم وإعادة إيطاليا إلى حظيرة الإمبراطورية البيزنطية. كما شهد في طفولته ــ بعد ذلك ــ مدينة روما وهى تخضع لحصار تلو الآخر من قبل البرابرة وقاسى مع سكانها المجاعات والأوبئة،حيث كان في السادسة من عمره عندما زحف توتيلاTotila ملك القوط الشرقيين على روما عام ٥٤٦م بهدف إزالتها من الوجود، فأخلاها من السكان وتركها نهباً لأتباعه نحو ستة أسابيع كاملة. وعندما بلغ الرابعة عشر شهد جريجوري خروج آخر قوات القوط من إيطاليا. وبعدها بأربعة عشر عاما (٥٦٨م) شهد قبائل اللومبارديين Longobardi [٣] المتبربرة وهى تتدفق من وراء جبال الألب

---

١ - Paul the Deacon , History of the Lombards, translated by William Dudley Foulk , (Philadelphia,1974), 128,Note, No.1; Duchesne ,L.,Le Liber Pontificalis, Vol.3 (Paris,1955), 312;**ODB**,2, 875.

٢ - Paulo Diacono, Sancti Gregorii Magni Vita , **PL** , ed Migne , 75 , (Paris,1849) , Col.41; Gregory of Tours, The History of The Franks,Trans with an Introduction By Dalton, O., Vol. II (Oxford,1927), 425; Hodgkin, T., Italy and her Invaders,553-600(Oxford,1916),Vol.V, 287;Bréhier,L.,Aigrain,R., Grégoire le Grand les États Barbares et la Conquête Arabe(590-757)(Bloud&Gay,1947), 18-19.

تجدر الإشارة إلى أن الكنيسة قسمت مدينة روما إلى سبعة مناطق أو أحياء، وكان يدير الجمعيات الخيرية فيها سبعة شمامسة، كل واحد منهم كان يساعد المسئول المدنى، الذي كان يحمل لقب ريجوناريوس، في كل حى في توزيع الصدقات على ذلك الحى، انظر :

Hodgkin, *Italy*, V, 287,292.

٣ - كان اللومبارديون يعرفون باسم قبيلة وينيلس Winniles ثم اطلق عليهم اسم اللومبارديين نظراً لأنهم كانوا أصحاب ذقون طويلة، فكلمة Longo تعنى طويل bardi تعنى ذقون، وهم من الشعوب الجرمانية التي أتت من جرمانيا إلى أطراف الإمبراطورية الرومانية في القرن الأول الميلادى، وكانوا أكثر تلك الشعوب تخلفاً في تلك الفترة المبكرة، كما كانوا أعنف العناصر الجرمانية التي غزت إيطاليا وأشدها قسوة،، انظر :
Paul the Deacon, *Lombards*, 3,18.

لتكتسح شمال إيطاليا[٤]. وبالتالى عاصر جريجوري وشاهد في صباه كثيرا من المحن التي مرت بها إيطاليا.

أما عن نشأته فلا نعرف عن فترة صباه إلا القليل، حيث تلقى دروساً في الأدب اللاتينى وفقاً للطريقة الكلاسيكية التي كانت سائدة ولخصها مارتيانوس كابلا في مقولته عن الفنون الحرة السبعة، التي تنقسم إلى مجموعتين:الأولى هى المجموعة الثلاثية، وتشمل النحو والبلاغة والجدل، والثانية المجموعة الرباعية، وتشمل الموسيقى والحساب والهندسة والفلك. فدرس الثلاث الأولى، أما بقية هذه الفنون، فقد كان ــ على غرار معاصريه ــ لا يعرف عنها شيئا، وكان لا يعرف غير لغته، إلا أنه درس القانون أيضا وتلقى تدريباً كافياً على طرق التدريس على أيدي معلمي البلاغة كي يتجنب حذلقتهم العابثة، وكثيراً ما كان يتباهى بعدم فصاحته [٥].

عمل جريجوري في المجال الإدارى في بداية حياته، حيث تم تعيينه واليا لمدينة روما عام ٥٧٣ م في عهد الإمبراطور جستين الثاني Justin II(٥٦٥ ــ ٥٧٨ م)، وهذا غير مؤكد، نتيجة لما حدث من خلط بعض المؤرخين الحديثين بين كلمتى: ولاية Praefectura و سلطة تنفيذية Praetura. والأرجح أنه تولى السلطة التنفيذية في المدينة، وهى وظيفة مهمة صاحبها النظر في المظالم والفصل في الجرائم، ومتابعة الشرطة وحملات التفتيش والدفاع عن المدينة عند تعرضها لأى خطر خارجى وغير ذلك من الأعباء الجسام. ولذلك قبلها جريجوري على مضض، لشعوره بالمسؤولية

انظر أيضا، سعيد عاشور، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، الجزء الأول، القاهرة ،١٩٧٦م، ص ١١١؛ أسامة زكى زيد، اللومبارديون وعلاقاتهم السياسية بالقوى المجاورة في ضوء كتابات المؤرخ بولس الشماس (٥٦٨ ــ ٧٧٤م)، الإسكندرية، ١٩٨٧م، ص ٧-١٠ .

[٤] – إسحق عبيد، الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية مع دراسة في " مدينة الله"، القاهرة، د ــ ت، ص ١٨١؛ محمود الحويرى، اللومبارديون في التاريخ والحضارة (٥٦٨ــ٧٧٤م)، القاهرة ١٩٨٦م، ص ٦٥.

[٥] – The Book of Pastoral Rule , and Selected Epistles of Gregory the Great Bishop of Rome, trans .with Introduction, Notes, and Indices, By James Barmby, In **NPNF**,212,Leo the Great,Gregory the Great, ed Philip Schaff, (New York ,2004), 397; Paulo Diacono ,Gregorii Magni,Col.42; Hutton, H.," Gregory the Great "In, **CMH**, ed J. B. Bury, Vol.II(Cambridge,1913), 236;Bréhier,Aigrain,Grégoire le Grand, 19;Hodgkin, Italy, V, 288.

انظر أيضا، محمود الحويري، اللومبارديون، ص ٨٥-٨٦.

تجاه شعبه، وأصبح من حقه ــ بموجبها ــ رئاسة مجلس السناتو، وارتداء الرداء الأرجواني الإمبراطوري، وركوب عربة تجرها أربعة خيول في شوارع مدينة روما[٦].

بيد أنه ترك هذه الوظيفة بعد فترة قصيرة، ربما كان ذلك بعد انتهاء مدتها الطبيعية، وانخرط عام ٥٧٥م في الحياة الدينية وهو في الخامسة والثلاثين من عمره [٧]. فباع ممتلكاته الكثيرة، التي ورثها عن آبائه، باستثناء قصر جبل كوليان Coelian Mount، وأسس بثمنها ستة أديرة للرهبنة في صقلية ودير سابع للقديس أندروAndrew في روما، وهو الدير الذي دخله بعدما ارتدى مسوح الرهبان وامتثل لنظام القديس بندكت، الذي كان معجبا به، وظل طوال السنوات الثلاثة التالية، يتعلم أساليب تنصير الوثنيين، إلى جانب حياة الزهد والتأمل التي عاشها [٨].

وإذا كان البابا بلاجيوس الثانى Pelagius II (٥٧٩ــ ٥٩٠م)، قد عين جريجوري عام ٥٧٩م في وظيفة الشماس السابع Seventh Deacon [٩]، فقد عدل عن ذلك وأرسله في نفس السنة إلى القسطنطينية، بعدما رأى أن جريجوري، بشخصيته التي تجمع بين رجل الدين ورجل الدولة، هو أفضل من يمثل البابوية والكنيسة الغربية كمبعوث بابوى (قاصداً رسولاً)*Apocrisiarius* في البلاط الإمبراطورى لدى

---

٦ - Bréhier,Aigrain., Grégoire le Grand, 20; Hodgkin, Italy, V, 288-289; Hutton," Gregory the Great, 236.

٧ - The Lombard Laws , trans. with an Introduction by K. F. Drew, Foreword by Edward Peters (Pennsylvania ,1996), XVI; Hodgkin, Italy, V, 289.

٨ - Paulo Diacono , Gregorii Magni,Col.43;Gregory of Tours,The Franks,Vol.II , 245; Paul the Deacon,Lombards,P128,Note, No.1;Bréhier,Aigrain,Grégoire le Grand, 21-22; Hodgkin, Italy, V, 289-290. Hutton,Gregory the Great, 237.
انظر أيضا، طارق منصور، هانئ البشير، مدخل إلى تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ،الرياض، ٢٠٠٧م، ص ١٥٢؛ إسحق عبيد، مدينة الله، ص ١٨١.

٩ - لا نعرف الكثير عن وظيفة الشماس السابع، لكن كان عدد المؤهلين لها قليلا للغاية، لأن أصحابها في النهاية كانوا يشاركون البابا في إدارة مدينة روما، وفى كل الأحوال كانت هذه الوظيفة خطوة على الطريق لمن يرغب في الوصول إلى كرسى البابوية، انظر :
Hutton, Gregory the Great, 238;Hodgkin,Italy,V, 292.

الإمبراطور طيبريوس الثاني Tiberius II(٥٧٨ ــ ٥٨٢م)، وليحث الأخير على إنقاذ إيطاليا من سلب ونهب اللومبارديين لها في الآونة الأخيرة [١٠].

امتدت إقامة جريجوري في القسطنطينية نحو ست سنوات كاملة ،شهد خلالها في الرابع عشر من أغسطس عام ٥٨٢ م اعتلاء الإمبراطور موريس Maurice (٥٨٢ــ ٦٠٢م) العرش البيزنطي خلفاً للإمبراطور طيبريوس الثاني ، كما شهد قبل ذلك بنحو أربعة شهور اعتلاء يوحنا الأسرع John the Faster الكرسى البطريركى (٥٨٢ــ ٥٩٥م) بالقسطنطينية خلفاً للبطريرك إيتخيوس Eutychius، وكان جريجوري قد دخل في جدل روحانى حاد مع الأخير، ولم يقتنع أي منهماــ رغم تدخل الإمبراطور طيبريوس ــ برأى الآخر حتى أصابهما المرض، ومات إيتخيوس على أثر ذلك وهو في السبعين من عمره. أيضاً استغل جريجوري وقت فراغه خلال تلك الفترة ــ بتشجيع من صديقه ليندر Leander أسقف أشبيلية Seville الذي كان في زيارة للقسطنطينية ــ في كتابة مجلد ضخم بعنوان "الأخلاق العظمى" Magna Moralia شرح فيه العقيدة المسيحية وغير ذلك من الأمور التي كانت بمثابة فلسفة أخلاقية لكل البشر، ولذلك ظل هذا الكتاب من أهم الكتب الكلاسيكية الشعبية طوال فترة العصور الوسطى [١١] .

---

١٠ - Paulo Diacono , Gregorii Magni, Col .44; Gregory of Tours, The Franks, Vol. II, 245;Paul the Deacon, Lombards, p 128,Note No.1;Moorhead,J.,"The Byzantines in the West in the Sixth Century" In **NCMH**,Vol.1 c.500-c.700(Cambridge,2008), 130; Barry,W.,The Papal Monarchy, From St. Gregory the Great to Boniface VIII(590-1303),(London,1902), 49;Bréhier,Aigrain, Grégoire le Grand, 22;Hodgkin, Italy, V, 291-293;Hutton," Gregory the Great, 238.

١١ - Pastoral Rule , 399 ; Paul the Deacon, Lombards, P 128,Note N.1; Philip Schaff, History of the Christian Church ,Vol. IV ,Mediaeval Christianity from Gregory I to the Gregory VII,(Dallas, 1998), 145; Hodgkin, Italy,V, 293-295;Hutton, Gregory Great, 239.

لمعرفة كتابات جريجوري الأول، انظر :

Baedae, Opera Historica, with an Eng Trans By J.E.King,M,A.,D,Litt, In Two Volumes , Ecclesiastical History of the English Nation, Books I-III, Vol.I, Cambridge ,1962, 193 -195;Philip Schaff, Christian, Vol. IV, 145-147.

ولمزيد من المعلومات عن كتاب " الأخلاق العظمى" انظر،

Moorhead ,J., Gregory the Great,(New York,2005), 49-67.

فاقت النتائج السياسية لإقامة جريجوري في القسطنطينية النتائج الدينية بكثير؛ فوجوده في البلاط الإمبراطوري على مقربة من صناع القرار البيزنطي أكسبه خبرة كبيرة سواء في مجال السياسة الخارجية أو إدارة شئون الإمبراطورية. كما نجح بدبلوماسيته الماهرة في إقامة علاقات ودية ــ رغم عدم معرفته اللغة اليونانية ــ مع بعض أفراد الأسرة الحاكمة وبعض العاملين في القصر الإمبراطورى ومن أبرزهم قسطنطينة Constantina ــ ابنة طيبريوس وزوجة الإمبراطور، وشقيقته موريس ثيوكتستا Theoctista، و ثيودور Theodore ــ الطبيب الإمبراطوري ــ والقائد نارسس Narses، الذي كان لا يقل شهرة عن سميه السابق القائد نارسس في عصر الإمبراطور جستنيان الأول. فقد دخل هؤلاء وغيرهم من المشاهير في صداقة حميمة مع المبعوث الروماني. أما الإمبراطور موريس نفسه، فعلاقته بجريجوري لم تكن حميمة، مع أنه اختاره ليكون مربياً لابنه الطفل ثيودوسيوس Theodosius[١٢])؛ ذلك أن الإمبراطور بطبعه كان قلقاً من ناحية روما وغير راض عن مطالبها المتكررة للمساعدات من المال والرجال، كى تستطيع مواجهة اللومبارديين هناك، فتلك مطالب كان يصعب عليه تلبيتها. وقد أثر ذلك كثيراً في نفس جريجوري بعدما رأى مصادر الإمبراطورية تبدد في حملات غير مجدية سواء أضد الفرس شرقاً أم الآفار Avars[١٣] شمالاً، فروما هى عاصمة العالم *Caput mundi* وجوهرته النفيسة، صحيح أنه شاهد في روما الجديدة (القسطنطينية) الواقعة على ضفاف البسفور والتى أصبح عمرها يناهز الثلاثة قرون، منشآت وقصور عظيمة تشبه نظيرتها في روما،

---

١٢ - Paulo Diacono , Gregorii Magni, Col .46; Paul the Deacon, Lombards , 128,Note No.1; Hodgkin, Italy, V, 295; Bréhier,Aigrain., Grégoire le Grand, 56. Hutton," Gregory the Great, 239.

١٣ - كان الآفار من القبائل الأسيوية الرعوية، التي لعبت دوراً قريب الشبه بالدور الذي لعبه الهون في أوربا، وكان تأثيرهم في أوربا العصور الوسطى كبيراً حيث كانت لهم علاقات بشرق أوربا (الدولة البيزنطية) وغربها لفترةٍ طويلةٍ من الزمن، انظر، أسمت غنيم، دراسات في تاريخ العصور الوسطى، الآفار، الإسكندرية ،١٩٩١م، ص ٣ــ٤.

لكنها مدينة حديثة نعمة ولا يمكن أن تضاهى روما في مجدها. ثم ازداد احتقاره للبيزنطيين بعدما وجد منهم لساناً معسولاً وخنوعاً ممقوتاً [١٤].

ولذلك مهما يقال عن أن فترة إقامته في القسطنطينية قد أكسبته خبرة سياسية عميقة، وأعدته إعداداً جيداً ليكون رجل سياسة في المستقبل، فالأمر الذي لا ريب فيه هو أن هذه الفترة لم تترك في نفسه أثراً لأى حب للعاصمة التراقية أو للإمبراطور موريس، وحتى بعدما أصبح بابا وأخلص للإمبراطور، لم تكن العلاقات بينهما على درجةٍ كافيةٍ من الانسجام، وتلك كانت هوة أخذت تتسع يوماً بعد الآخر لتفصل بعد مرور نحو قرنين من الزمان، بين خلفاء القديس بطرس Peter وخلفاء ديفوس أغسطس Divus Augustus [١٥].

على أي حال، عاد جريجوري إلى روما عام ٥٨٥م أو ٥٨٦م، ودخل دير القديس أندرو مرة أخرى وأصبح مقدماً (رئيساً) له، وما نعرفه عن فترة إقامته الثانية في هذا الدير قليلٌ للغاية، إلى أن حل خريف سنة ٥٨٩م، وحدث الطوفان العظيم في نهر التيبر وهاجمت إيطاليا جموع من الحشرات وانتشرت الأوبئة وانتشر الطاعون، الذي مات بسببه البابا بلاجيوس الثانى في الثامن من شهر فبراير عام ٥٩٠م. فاحتشد الناس أمام باب دير القديس أندرو ومعهم رجال الدين، وطالبوا جريجوري أن يخلفه على كرسى البابوية، فرفض ثم كتب رسالة إلى الإمبراطور موريس يطلب منه أن لا يوافق على توليه هذا المنصب [١٦].

لكن جرمانوس Germanus والى مدينة روما وكان شقيقا لجريجوري، اعترض مبعوث جريجوري وأخذ منه الرسالة واستبدلها بأخرى ــ دون أن يعلم جريجوري ــ يطلب فيها من الإمبراطور، نيابة عن الشعب، تعيين جريجوري خلفاً للبابا بلاجيوس الثاني. وبينما كانت استعدادات انتخابه وتقليده البابوية قائمةً على قدمٍ وساق؛ إذ بالطاعون يجتاح روما، فيتسبب مع هجمات اللمبارديين التي قطعت خطوط

---

١٤ – Hodgkin, Italy,V, 296.

١٥ – Hodgkin, Italy, V, 296.

١٦ – The Book of The Popes (Liber Pontificalis) I ,to the Pontificate of Gregory I , trans with an Introduction By Louise Ropes Loomis,(New York,1916), 166, Note No.2; Pastoral Rule , 400;Hodgkin, Italy, V, 296-298.

المواصلات، في تأخر عودة مبعوث جريجوري من القسطنطينية، ولذلك مضت نحو سبعة شهور حتى جاءت موافقة الإمبراطور موريس في نهاية شهر أغسطس عام ٥٩٠م، في وقت كان جريجوري يعد للهروب فراراً من أعباء هذا المنصب، بيد أنه لم يفلح في ذلك وتم انتخابه في شهر سبتمبر وحمل إلى كنيسة القديس بطرس وهناك تمت مراسم تكريسه خلفاً للبابا بلاجيوس الثاني(١٧).

وتنم رسائل (١٨) البابا جريجوري الأول على الندم الشديد لتولى هذا المنصب، ويتضح ذلك من رسالته لبطريرك القسطنطينية يوحنا الأسرع ، الذي عاتبه على عدم اعتراضه على الإمبراطور عندما وافق على توليه منصب البابوية قائلا : ".... لقد

١٧- Gregory of Tours, The Franks, Vol.II, 246 ; Gregorovius, F., History of the City of Rome in the Middle Ages, Trans. From the Fourth German edition By Mrs Gustavus W. Hamilton,Vol.II.A.D.568-800,(London,1911), 31-32; Hodgkin, Italy, V, 298,302-303; Barry, Monarchy, 50.

١٨ - جرت العادة منذ القدم أن يجمع البابوات رسائلهم في سجل على غرار قدماء الرومان، وقد حفظت هذه السجلات معلومات قيمة عن تاريخ الكرسى البابوى. وتعتبر السجلات التي تركها البابا جريجوري الأول من أعظم هذه السجلات لدقتها وغزارة معلوماتها؛ ذلك أن الفترة المهمة من حياة جريجوري رجل الدولة عبر عنها في رسائله التي كتبها خلال أربعة عشر عاما هى فترة بابويته، وبلغ عددها نحو ٨٣٨ رسالة تناول فيها مجالات مختلفة وقدم فيها للدارسين معلومات قيمة عن اللاهوت والرهبنة والأخلاق والسياسة والدبلوماسية والاقتصاد والإدارة البابوية، كما تعطى هذه الرسائل أيضا معلومات وافية عن واجبات جريجوري الأول المتعددة وعطائه المتنوع ومشاعره الفياضة، وتعتبر هذه الرسائل أهم مصدر لمن يتصدى للتأريخ للبابا جريجوري الأول والعصر الذي عاش فيه. ويلاحظ أن الكاتب ابتعد في هذا الرسائل عن كل فنون البلاغة وتحدث فيها يهاجم النحويين، كما يلاحظ أنه افتقر للتفسيرات النحوية والتاريخية لعدم معرفته باللغتين العبرية واليونانية والتاريخ والعادات والتقاليد الشرقية رغم أنه عاش في القسطنطينية فترة ليست قصيرة، إلا أن أسلوبه اللاتينى كان دقيقا ومختلفا عن الصخب النحوى لدى جريجوري التورى، كما أن عدم اهتمامه بالأسلوب البلاغى جعل رسائله سهلة القراءة عن كتابات كاسيدروس Cassiodorus المسهبة وكتابات أينوديوس Ennodius الغامضة، ولم يفوقها غير قوانين ثيودوسيوس وجستنيان. تم نشر هذه الرسائل ضمن اعمال الآباء اللاتين Patrologia Latina كما ترجمت مؤخراً إلى اللغة الإنجليزية ضمن مجموعة، Fathers Nicene and Post-Nicene، انظر :

Sancti Gregorii Magni , Registri Epistolarum, **PL**, ed Migne T.3,Vol.77 , (Paris,1849) , Cols. 441-1327;Gregory the Great, II,Ephraim Syrus, Aphrhat,By Philip Schaff , In **NPNF**, 213,(New York,2004); Philip Schaff, Christian,Vol. IV, 145, 147;Hodgkin, Italy, V, 279.307-308; Bréhier,Aigrain, Grégoire le Grand, 34-35.

وضع على كاهلى الضعيف قيادة سفينة عتيقة شبه محطمة مهددة بالغرق .. والآن عليك رفع أكف الضراعة لمساعدتى " [١٩].

لقد كان جريجوري الأول يتمتع بالفعل بكل المؤهلات اللازمة لاعتلاء الكرسى البابوي، سواءٌ من ناحية أصله النبيل، أو خبراته في المجالين الديني والسياسي، وكان الرجل نموذجاً لمن كانت لهم طبيعة مزدوجة ولعبوا دوراً مهماً في تاريخ العالم. ففى الوقت الذي كان فيه في تأمل وفكر دائم جعله يكره فساد البشر ويسعى لكسب رضاء الرب ولذلك كان سعيدا بحياته في دير كوليان، كان يرى أيضاً أن منصب أسقف روما لا يضارعه منصب آخر، وصاحبه لديه فرصةٌ كبيرةٌ، دون غيره، ليتمتع بنفوذ واسع على عدد كبير من الشعوب والممالك القوية، كما أنه يستطيع أيضاً أن يقيم مرة أخرى من هذه المدينة (روما) شبه المدمرة على نهر التيبر، إمبراطورية أطول عمراً وأوسع رقعةً من تلك التي تزعزعت زمن كل من تيتوس Titus (٧٩-٨١م) و ماركوس أورليوس Marcus Aurelius (١٦١-١٨٠م) [٢٠].

هكذا كان فكر جريجوري الأول عندما اعتلى الكرسى البابوى، لديه اعتقاد راسخ في سمو البابوية وفى عظمة مدينة روما وتفوقها على غيرها من المدن الأخرى، وهو أمر لم يكن وليد عصره أو من بنات أفكاره، وإنما كان ــ من وجهة نظر الباحث ــ ثمرةً لجهودٍ مضنيةٍ بذلها أسلافه لعدة قرون مضت من أجل تحقيق هذا الهدف [٢١].

على أي حال، كان وضع كنيسة روما محفوفاً بالمخاطر وبالمصاعب عندما ارتقى جريجوري الأول منصب البابوية. ففى خارج أسوار روما كانت السيوف اللومباردية

---

١٩ - .Sancti Gregorii Magni , Epistolarum, I. Ep. IV, Cols. 447-448.

ولمعرفة نص الرسالة كاملا، أنظر :

Sancti Gregorii Magni, Epistolarum, I .Ep. IV, Cols. 447-448.

٢٠ - Hodgkin, Italy,Vol.V, 305-306.

٢١ - ظلت كنيسة روما طوال ما يقرب من قرن ونصف من الزمان مشغولةً تماماً بقضية خطيرة، وهى إثبات علو كعبها على بقية الأسقفيات الأخرى، في الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم والقسطنطينية. وتشهد بذلك قوانين المجامع المسكونية الثلاثة في نيقية عام ٣٢٥م، والقسطنطينية عام ٣٨١م وخلقيدونية عام ٤٥١م. وتلك كانت الخطوة الأولى في سبيل الزعامة، انظر، رأفت عبد الحميد، "السمو البابوي بين النظرية والتطبيق " في كتاب، الفكر السياسي الأوربي في العصور الوسطى، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٢١ .

تفتك بالرقاب، وفى داخلها اشتعلت ثورات الجند وفتنهم. وإذا كان جريجوري يستطيع أن يمتص ثورات الجند بتوزيع بعض أموال الكنيسة عليهم، فإنه وقف عاجزاً أمام خطر دوقى سبوليتو Spoleto وبنيفنوم Beneventum اللومبارديين. فقد دأب الأول على قطع طريق المواصلات بين روما ورافنا، وهو طريق فلامينيا Via Flaminia الذي كان يمر عبر دوقيته، أما الثاني : فقد ظل مصدر تهديد لنابولىNaples، كما أحكم قبضته على طريق المواصلات بين روما وبرنديزي[٢٢].

وسرعان ما توالت الأحداث مع نهاية العام الأول من توليه البابوية، تنذر بحدوث معركة على مقربة من أسوار روما، ليبلغ العداء أشده في شهر سبتمبر عام ٥٩١م؛ ذلك أن الوباء الخطير، الذي توفى بسببه البابا بلاجيوس الثاني عام ٥٩٠م، كان لا يزال يجتاح إيطاليا، فكتب إلى أسقف مدينة نارني Narni الحدودية، يحثه على العمل على رفع الروح المعنوية بين السكان هناك ويسعى لإقناع الوثنيين والهراطقة باعتناق الكاثوليكية [٢٣]. كتب أيضا رسالة أخرى في السابع والعشرين من نفس الشهر إلى قائد الجيش فيلوكس Velox، الذي كان يعسكر في بروجيا Perugia الواقعة على الطريق بين روما ورافنا، يطلب منه أن يقوم بمهاجمة مؤخرة جيش الدوق اللومباردى أريولف Ariulf إذا ما فكر الأخير في مهاجمة رافنا أو روما، ويحثه على بذل كل ما في وسعه هو ورجاله للحيلولة دون ذلك، وأنه على استعداد لتزويده بما يحتاج إليه من جنود [٢٤].

لكن مر خريف وشتاء عام ٥٩١م دون أن يحدث الهجوم اللومباردى المرتقب، ومع ذلك ظل البابا يراقب حدوده الشمالية بنوع من القلق خشية تعرضها لاعتداء من قبل دوقية توسكانيا Tuscany اللومباردية. صحيح كانت هناك مدينتان حدوديتان

---

٢٢ – Moorhead, Gregory , 5.

انظر أيضا، محمود الحويرى، اللومبارديون، ص ٩١.

٢٣ – Sancti Gregorii Magni , Epistolarum,II, Ep. II, Col.549; Hodgkin, Italy, V, 352 - 353.

٢٤ – Sancti Gregorii Magni , Epistolarum, II, Ep.III, Col.540 ; Hodgkin, Italy, V, .535

ولمعرفة نص رسالة البابا جريجوري الأول إلى القائد فيلوكس، انظر :

Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum, II, Ep.III, Col.540.

صغيرتان هما سوترويم Sutrium و نيبي Nepe ــ على بعد حوالى ثلاثين ميلا شمالى روما وجنوب جبل سمنيان Ciminian ــ شكلتا حاجزاً ضد هؤلاء الأعداء، لكن المدينة الأخيرة منهما كانت ضعيفة. ولذلك أقدم البابا على خطوة جريئة حينما قام بتعيين قائد عسكرى لها من قبله هو ليونتيوس Leontius. ووجه رسالة إلى السكان هناك يحثهم على طاعته، ويُذكرهم أن من يتمرد عليه فهو يتمرد على البابا نفسه، وتلك مخاطرة لا تحمد عقباها[٢٥] .

ويمكن أن نستنتج من هذه الرسالة القصيرة مدى المسافة التي كان يقفها البابا من الكرسى الإمبراطوري، وما هى طريقة إدارته لأوقاف كنيسة القديس بطرس ؟ ومدى تعثر الاتصال مع مدينة رافنا، فهذه الأمور وغيرها دفعت البابا وبقوة إلى أن يتحول، ــ سواء بمحض إرادته أو رغما عنه ــ من رجل دين فقط إلى حاكم دنيوي أيضا [٢٦]. ولذلك في الوقت الذي كتب فيه لأساقفة إيطاليا يطالبهم بطاعة كرسى روما، كما هو واضح من رسالته لأسقف رافنا، كتب أيضاً للقائدين موريس وفيتاليان Vitalian ــ رغم ألقابهما الرسمية ــ يخاطبهما كمسؤولين أمامه وليس أمام الأكسارخ في رافنا، ونتيجة لذلك حضر إلى روما القائد فيتاليان والتقى مع البابا شخصياً وقدم لأعوانه المشورة وبعض الخطط العسكرية شفاهة وكتابة [٢٧] .

فى غضون ذلك وتحديداً في شهر يونيو من العام التالى (٥٩٢م) ، وصلت البابا رسالة كتبها الدوق اللومباردى أريولف، يعبر فيها متفاخراً عن قدرته على حصار روما، ويعلن عن رغبة سكان قرية سوانا Suana [٢٨]) في الاستسلام. وهو ما جعل البابا يطلب من القائدين موريس وفيتاليان أن يخطبا ود أهل سوانا بكل السبل كى لا

---

٢٥ – Sancti Gregorii Magni , Epistolarum, II, Ep.XI , Cols.547-548; Hodgkin, Italy, V, 354-355. .

٢٦ – Hodgkin, Italy, V, p .355.

٢٧ – Sancti Gregorii Magni , Epistolarum, II, Ep.XXX, XXXV,Cols.564,565,573,574 ; Hodgkin, Italy, V, 355-357.

٢٨ – كانت قرية سوانا تتبع لمدينة سوفانا Sovana الحصينة الواقعة على بعد أربعين ميلاً من حدود دوقية روما، وقد زاعت شهرتها في القرن الحادى عشر الميلادى لكونها مسقط رأس البابا جريجوري السابع Gregory VII (١٠٧٣ــ ١٠٨٥م)، انظر،

Hodgkin,Italy,V,, 357.

يفعلوا ذلك. صحيح أننا لا نعرف ماذا حدث بالفعل بشأن سوانا ؟ لكن زهو أريولف وتفاخره لم يذهب هباءً، فالنقطة الحدودية الأترورية Etrurian سرعان ما وقعت في أيدى اللومبارديين[٢٩]. كما تعاون أرخيس Arichis دوق بنيفنتوم مع ابن جلدته أريولف للضغط على نابولي، ولما وجد البابا أن الاكسارخ البيزنطي رومانوس متقاعساً في الدفاع عن المدينة، عين هو قائداً يسمى قنسطنطيوسConstantius برتبة تربيون Tribune للدفاع عنها،وكتب رسالة للجنود المرابطين هناك يأمرهم بطاعته ويحفزهم على الاستبسال في الدفاع عن نابولى [٣٠].

وفى محاولة لتقييم ما قام به جريجوري، نجد أن ما قام به من تعيين قائد عسكرى لمدينة نابولى ومن قبلها مدينة نيبى إلى غير ذلك من الممارسات السياسية، كان يعتبر عملاً جريئاً وتعدياً على حقوق بيزنطة، والغريب أن هذا التصرف لم يلق معارضة من قبل الإكسارخ بوصفه صاحب السلطتين العسكرية والمدنية في إيطاليا [٣١]. ولا شك في أن تراجع الدور البيزنطي في إيطاليا، هو الذي أفسح المجال أمام البابا كى يملأ الفراغ السياسي الناجم عن ذلك، واستفاد منه العدو اللومبارداى في ايطاليا.

وقد حاول البعض أن يبرر للإكسارخ رومانوس تقاعسه في الدفاع عن نابولى وغيرها من المدن الإيطالية، على اعتبار أن كل ما كان يعنيه بالدرجة الأولى هو استمرار الاتصال بين روما ورافنا، وبالتالى فحقن دم أي جندى كان سيساهم بشكل أو بآخر في الدفاع عن بروجيا Perugia، التي شكلت بموقعها أهم نقطة لتأمين هذا الاتصال. لكن سواء كان ذلك صحيحا أم لا، فالواضح أن العلاقات بين البابا جريجوري الأول والإكسارخ رومانوس كانت مقطوعة ووصلت لحد العداء. يبدو ذلك جليا مما كتبه البابا إلى سميه جريجوري أسقف رافنا في شهر يوليو عام ٥٩٢م قائلاً : " لا تقلقكم عداوة المعظم البطريق رومانوس نحونا، بسبب تفوقى عليه منزلةً وشرفاً،

---

[٢٩] - Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum,II,Ep.XXX, Cols.564-565 ; Hodgkin, Italy,V, 357-359.

[٣٠] - Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum,II,Ep.XXXI, Col.565 ; Hodgkin, Italy ,V, 359

[٣١] - محمود الحويرى، اللومبارديون، ص ٩٣ .

ولزاماً على أن أكون صابراً محتسباً واقحته" [٣٢]. أما عن مدينة نابولى فقد استطرد البابا قائلا : " عليك أن تضغط على الإكسارخ، لأن أرخيس، حسب معلوماتنا، انضم إلى أريولف...ويخططان للاستيلاء على المدينة وإذا لم تصلها نجدة عاجلة سوف تستسلم. وبالنسبة لمدينة فانوم Fanum ــ فانو Fano حاليا على الساحل الإدرياتى ــ القوية فقد وقع أغلب سكانها في أسر العدو الذي حال تواجده دون أن أرسل لها التعزيزات اللازمة... عليك أن ترسل الراهب كلاوديوس Claudius لفداء الأسرى وأن تحدد لى بدقة المبلغ الذي أفديهم به، وما تقرره يسعدنى أن أدفعه لك " [٣٣] .

وسرعان ما بلغ الخطر ذروته مع محاولة أريولف الاستيلاء على روما في نفس الوقت الذي كان يحرص فيه أرخيس على الاستيلاء على نابولى، ومن ثم أصبح لزاماً على البابا أن يأخذ زمام المبادرة لينقذ روما و نابولى من الخطر اللومباردى المحدق، لاسيما وأنه لا توجد بادرة أمل في وصول أي نجدة بيزنطية [٣٤] وهنا يتساءل الباحث ألم يعد البابا جريجوري الأول يتمتع بنفوذ كبير ونشاط ملحوظ على الساحة السياسية في إيطاليا ؟ ألم تكن لديه الموارد المالية الكافيه التي تساعده على الإقدام على أي عمل سياسى ينهى هذه المعاناة ؟ فلم التردد إذن ! والخطر أصبح محدقاً ولا تحمد عقباه .

وبالتالى أخذت فكرة عقد اتفاقية سلام مع أريولف تختمر في ذهن جريجوري الأول. وأرسل على الفور إلى أسقف رافنا يطلب منه أن يحاول إقناع الإكسارخ

---

٣٢ - Sancti Gregorii Magni,Epistolarum,II,Ep.XLVI,Cols.583-586 ; Gregorovius, Rome, Vol. II, 39; Hodgkin, Italy, V, .359-361.

"Movere autem vos non debet praefati excellentissimi viri Romani Patricii animositas , quia nos quanto cum loco et ordine praeimus , tanto si qua sunt ejus levia tolerare mature et graviter debemus"

انظر:

٣٣ - Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum,II,Ep.XLVI,Col.584.
Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum,II,Ep.XLVI,Cols.585-586.

٣٤ - Hodgkin, Italy , V, 359-360; Hutton, Gregory the Great, 244.

انظر أيضا، وفاء عبد الحميد، الإمبراطور موريس (٥٨٢ــ٦٠٢م) أحوال الإمبراطورية البيزنطية في عهده، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، كلية الآداب ــ جامعة عين شمس، ١٩٨٨م، ص١٢٣.

رومانوس بفكرة عقد سلام مع أريولف، ويعده بأن البابا سيرسل له من يرتب معه أمر التعويضات المالية [٣٥].

وانقطع بعد ذلك اسم أريولف من رسائل جريجوري الأول لبعض الوقت، حيث لجأ البابا إلى الوسائل الدبلوماسية وأخذ يعاتب أريولف تارة، ويوبخه ويمنيه ــ عن طريق رسله ــ بلقائه تارة أخرى، وكان ما يزال على وثنيته، وربما تكون هذه الدبلوماسية هى التي أدت إلى تغير موقف أريولف؛ ذلك أن المؤرخ اللومباردى بولس الشماس Paulo diacono[٣٦]) ذكر رواية يُستشف منها أن أريولف التقى بالبابا وتأثر بكلامه ولذلك وعد البابا بأن يكون خادما للكنيسة الرومانية [٣٧]. وبذلك يكون البابا جريجوري الأول قد قام بنفس الدور الذي سبق أن قام به سلفه ليو الأول Leo I(٤٤٠ــ ٤٦١م) مع آتيلا Attila [٣٨] قبل نحو قرن ونصف من الزمان، ونجح في

---

٣٥ - Sancti Gregorii Magni,Epistolarum,II,Ep.XLVI,Col.586;Hodgkin,Italy,V, 360.

٣٦ - ولد بولس الشماس من ابوين لومبارديين، ونال حظه من التعليم في البلاط الملكى اللومباردى في بافيا Pavia أثناء حكم الملك ليوتبراند Liutprand (٧١٢ــ ٧٤٤م) الذي أصبح بمثابة الأب الروحى له. وظل يتدرج في المناصب المتعددة في البلاط الملكى طوال حكم هذا الملك ومن خلفه على العرش حتى سقطت مملكة اللومبارديين عام ٧٤٤م على يد شارلمان. وكان بولس قد شُغل قبل وفاته عام ٧٩٩م بنحو ثلاثة أعوام بكتابة أكثر من مصنف، كان من بينها كتابه المدون باللغة اللاتينية والمعنون بـــ" تاريخ اللومبارديين "Historia Langobardorum، الذي يعتبر مصدراً رئيسياً لتاريخ اللومبارديين، وقد تمت ترجمته في العصر الحديث إلى بعض اللغات الأوربية الحديثة، كان آخرها الترجمة الإنجليزية للأستاذ وليم دادلى فولك =William Dudley Folk. وكتاب آخر عن سيرة مختصرة للبابا جريجوري الأول، نشرها ماين Migne ضمن أعمال الآباء اللاتين Patrologia Latina، انظر،
Paulo Diacono, Sancti Gregorii,Cols.41-60; Hodgkin, Italy ,V, 279.
انظر أيضا :أسامة زكى زيد، اللومبارديون، ص ٣-٥ .

٣٧ - Paul the Deacon, Lombards, 160-162.

٣٨ - كان البابا ليو الأول قد نجح في عام ٤٥٢م ــ بدبلوماسية السياسي البارع، ولباقة المجادل الحاذق وبساطة رجل الدين المتواضع ــ في مواجهة تهديدات زحف آتيلا Attila ــ ملك الهون ــ على إيطاليا ووصوله على مقربة من مانتوا Mantua، وطلبه هونوريا Honoria شقيقة الإمبراطور فالنتيان وابنة الأوغسطا بلاسيدا Placidia Augusta؛ وذلك من خلال سفارة أرسلها لآتيلا، فجنب مدينة روما الدمار الذي كان سيلحق بها. كما نجح أيضا بعد ذلك بنحو ثلاث سنوات في إقناع جزريكGaiseric ملك الوندال Vandales (٤٧٩-٤٧٧م)، الذي احتل المدينة بأن يمتنع عن أعمال القتل وإشعال الحرائق، ومع ذلك هناك وجهة نظر أخرى ترى أن تراجع آتيلا عن إيطاليا عام ٤٥٢م لم يكن بسبب العهود التي قطعها على نفسه أو الرشاوى التي قدمتها له سفارة ليو الأول، وإنما بسبب المجاعة التي اجتاحت إيطاليا، انظر :

عقد اتفاقية سلام مع أريولف في شهر يوليو عام ٥٩٢م، وكان ذلك نصراً دبلوماسياً حققه البابا ونجح من خلاله ــ ولو مؤقتاً ــ في إنقاذ روما ونابولى من الخطر اللومبارداى [٣٩].

وكانت أصداء السلام الذي عقده البابا جريجوري بمعزل عن الإمبراطور البيزنطي ونائبه في رافنا، سيئة للغاية سواء في القسطنطينية أو رافنا. فقد بدا تصرف البابا ــ رغم حكمته ــ وكأنه خطوة على طريق الاستقلال عن البيزنطيين، ولذلك كان رد الفعل البيزنطي عنيفاً وسريعاً. فقد اتهم الإمبراطور موريس البابا بالغباء ورماه بالعصيان، لكنه لم يجرؤ على عزله ؛لأنه كان مشغولاً آنذاك بالحروب الفارسية والآفارية. أما رد فعل نائبه رومانوس فكان عملياً؛ ذلك أنه رأى أن السلام مع اللومبارديين يعتبر تسليما بالأمر الواقع، وهو أن تظل الممتلكات الإمبراطورية في إيطاليا تحت رحمة هؤلاء البرابرة. ولذلك شن الحرب على اللومبارديين، ونجح يوماً بعد الآخر في استعادة المدن التي استولى عليها أريولف واحدةً تلو الأخرى، وهذه المدن هى:سوتريومSutrium(سوترىSutri حاليا)،بوليماترتيومPolimatrtium (بومارزوBomarzo حاليا)، بروسياPerusia(بروجياPerugia) وغيرها، الأمر الذي أدى إلى فتح طريق المواصلات بين رافنا وروما من ناحية، وفصل الممتلكات اللومباردية الجنوبية عن شمالها من ناحية أخرى [٤٠].

وبذلك يكون رومانوس قد ضحى ــ لسبب أو لآخر ــ بما حققه البابا من نتائج دبلوماسية، كما أغضب في نفس الوقت الملك اللومبارداى أجيلولف Agilulf (٥٩٠ــ٦١٦م)، الذي أصر على ضرورة الانتقام، لكنه انشغل لبعض الوقت في

Jordanes , The origin and deeds of the Goths , In English version , By Charles C. Mierow , (Princeton,1908), 69 ; The Popes,Vol.I, 101; Gordon,C.,The Age of Attila, Michigan,1966, 108; Walter Ullmann, A short history of the Papacy in the Middle Ages (London,2003), 11.

٣٩ - Barry, Monarchy , 51; Hodgkin, Italy ,V,pp .364,365; Hutton, Gregory the Great, 244.

٤٠ - Hodgkin, Italy , V, 366-367.

انظر أيضا، أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى طه بدر، القاهرة، ١٩٥٣م، ص٩٣؛ محمود الحويرى، اللومبارديون، ص ٩٤؛ وفاء عبد الحميد :موريس، ص ١٢٣- ١٢٤.

مواجهة تمرد بعض أدواق اللومبارديين إلى أن حل ربيع عام ٥٩٣م، وعندها عبر بجيشه نهر البو متجها نحو مدينة بروجيا وفرض الحصار عليها إلى أن سقطت في يده بعد عدة أيام، وأعدم دوقها ماوروسيو Maurisio على خيانته، عندما سلم المدينة للإكسارخ البيزنطي. ثم اتجه بعد ذلك نحو مدينة روما وفرض الحصار عليها، في وقت كان فيه البابا جريجوري الأول يلقى عظاته اليومية عن النبى حزقيال Ezekiel في الكنيسة[٤١]). وأخذت المشاهد المرعبة التي مرت بها روما قبل نحو قرنين من الزمان، عندما سقطت المدينة في أيدى ألريك Alaric ملك القوط الغربيين Visigoths عام ٤١٠م أثناء تفسير القديس جيروم Jerome لمعجزات حزقيال وفعل بها الأفاعيل، تتبادر إلى الذهن مرة أخرى [٤٢].

وتوقف البابا عن عظاته وأخذ يستعد مع جريجوري والى المدينة، ومع كاستوس Castus قائد الجند، للدفاع عن روما، كما سعى في نفس الوقت للتفاوض مع أجيلولف لعله يقنعه برفع الحصار عن المدينة. وبالفعل وافق الأخير، لأسباب مختلفة أهمها : خوفه من انتشار الحمى بين قواته، ومن تمرد بعض الأدواق ضده واحتمال استغلال رومانوس فرصة غيابة في مهاجمة أراضيه، على رفع الحصار عن روما مقابل مبلغ كبير من المال يدفعه له البابا، واكتفى بهذا المبلغ وبما جمعه من غنائم وأسلاب وعاد أدراجه إلى ميلان Milan [٤٣]). وبالتالى نجح البابا جريجوري الأول هذه المرة أيضا بدبلوماسيته المعهودة في رفع الحصار عن روما، وحال دون اقتحام اللومبارديين لها، رغم ما تعرضت له من مجاعة جعلتها توشك على الاستسلام لهم.

وشجع ذلك النجاح البابا وجدد الأمل لديه في إمكانية عقد صلح مرة أخرى مع اللومبارديين، لكن لو تم هذا الصلح، كان لابد من تعزيزه بصلح آخر بين إجيلولوف والإمبراطور موريس، حتى تستطيع إيطاليا أن تنعم بسلامٍ دائم. الأمر الذي جعل البابا يكتب على عجل في شهر سبتمبر عام ٥٩٣م، إلى أسقف ميلان قنسطنطيوس داعيا

---

٤١ - Gregorovius,Rome,Vol.II , 40;Hodgkin, Italy ,V,367-369; Hutton,Gregory the Great, - 244.

٤٢ - Jordanes , Goths, 48;Hodgkin, Italy , V, 370-371.

٤٣ - Bréhier,L.,Le Mond Byzantin , Vie et Mort de Byzance,(Paris,1948), 42;Hodgkin, Italy , V, 371.

انظر أيضا، وفاء عبد الحميد، موريس، ص ١٢٤ .

إياه أن يتوسط لعقد صلح بين أجيلولف ورومانوس أولاً، ووكله أن يقدم للأخير ضمان البابوية التزام اللومبارديين بهذا الصلح [٤٤] .

لكن الصلح بين اللومبارديين والبيزنطيين لم يكن أمراً سهلاً، كما أن البابا لم يعد شخصاً مرغوباً فيه في القسطنطينية، ولم يكن ليقبل أيضاً أن يكون فقط مجرد وسيط بين الجانبين. ولذلك سرعان ما توترت العلاقة بين البابا والإمبراطور، لا سيما بعدما أصدر الأخير مرسوماً حظر فيه ــ إزاء هجرة السكان الكثيفة من الأراضى التي هاجمها الآفار والسلاف، وتزايد أعداد الموظفين الذين لاذوا بالأديرة أو عملوا ككهنة فراراً من التزاماتهم تجاه الدولة مما أثر على مواردها ــ على كل من يعمل في إدارة الشئون العامة أن يمارس العمل الكنسى أو يلوذ بأحد الأديرة، ويشمل هذا الحظر أيضاً كل مسئول وكل جندى يحمل على كتفه شارة الجيش، إلا إذا انتهت مدة خدمته [٤٥] .

وعبر البابا جريجوري الأول للإمبراطور موريس عن غضبه الشديد من هذا المرسوم، في واحدة من أشد رسائله قسوة وسخطاً وتوبيخاً وبلهجةٍ لم يجرؤ أحدٌ من بطاركة القسطنطينية أن يوجهها للإمبراطور البيزنطي. حيث أشار البابا إلى عدم اعتراضه على منع العامة من العمل بالكهنوت، فذلك أمر متعارف عليه منذ عصر قسطنطين، لكنه دحض مزاعم الإمبراطور بأن هناك خسارة لخزانة الدولة للكثير من مواردها نتيجة التحاق بعض موظفيها بالأديرة، واستنكر عليه إغلاقه باب الخلاص في وجه الجنود، ومنعه لجنوده أن يكونوا جنوداً للسيد المسيح [٤٦]. ثم وجه نداءه للإمبراطور قائلاً نيابةً عن السيد المسيح :".. لقد أخذتُ بيدك وأنت بعد جندى، وجعلت منك قائداً للحرس، ثم قائداً للحرس الإمبراطورى Comes Excubitorum ثم قيصراً فإمبراطوراً، ليس هذا فحسب وإنما أباً لأباطرة أيضاً. وأمنتك على كهنتى،

---

٤٤ - Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum,IV,Ep. II, Cols.669-670 ; Hodgkin, Italy, V, 372-373 .

٤٥ - Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum,III ,Ep.LXVI,Col.665; Hodgkin, Italy ,V, 373–374;Bréhier,Aigrain.,Grégoire le Grand, 60. .

٤٦ - Hodgkin, Italy ,V, 374-375; Bréhier,Aigrain., Grégoire le Grand, 60.

والآن تمنع جنودك من خدمتى ؟ كيف ستجيب سيدك إذا جاء يوم القيامة وسألك عن هذه الأشياء ؟ [٤٧].

ولم نعرف النتائج التي ترتبت على هذه اللهجة الحادة، وما هو رد فعل الإمبراطور تجاهها ؟ لكن الراجح هو أن مرسوم الإمبراطور، إذا لم يكن قد تم إلغاؤه بشكل رسمى، فهو لم يدخل حيز التنفيذ، وأصبح في طى النسيان. كما سعت الإمبراطورة قسطنطينة من جانبها إلى تلطيف الأجواء، فأرسلت إلى البابا في ربيع عام ٥٩٤م، بإيحاء من بطريرك القسطنطينية يوحنا الأسرع، تطلب منه فصل رأس رفاة القديس بولس عن جسده الراقد في البازيلكا،وإرسال هذا الجسد إلى القسطنطينية، لدفنه في الكنيسة الصغيرة التي كانت تشيدها داخل القصر الإمبراطورى، وتريد أن ترفع من شأنها بدفن رفاة أحد القديسين فيها. فرد عليها البابا معتذراً عن عدم تلبيته طلبها؛ لأنه لا يجرؤ على فعل ذلك مهابة وتقديساً لرفاة هؤلاء القديسين، وذكر لها عددا من المواقف والمشاهد التي تدل على غضب القديسين على كل من يجرؤ على مس عظامهم [٤٨]. ثم أخذت العلاقات تتحسن بشكل واضح في بداية عام ٥٩٥م، وخير وخير دليل هو ما كتبه البابا في شهر مارس إلى الإمبراطور موريس، يشكره على الأموال التي أرسلها مؤخراً لتوزيعها على الفقراء، الذين هربوا ولاذوا بروما جراء الغزو اللومباردى لإيطاليا، وعلى الجنود أيضاً. وأشار إلى أن هذه الهدية فرح بها

---

[٤٧] - *" Christus,dicens:Ego te de notario comitem excubitorum ,de comite excubitorum. Caesarem ,,de caesare imperatorem ; nec solum hoe,sed etiam patrem imperatorum feci Sacerdotes meos tuae manui commisi ,et tu a meo servitio milites tuos subtrahis?Responde ,rogo ,piissime domine ,servo tuo ,quid venienti et haec dicenti responsurus es in judicio Domino tuo?"*

انظر،

Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum, III. Ep.LXV.Col.664.

انظر أيضا، رأفت عبد الحميد، السمو البابوي، ص ٢٤.

ولمعرفة بقية نص هذه الرسالة، انظر :

Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum, III. Ep.LXV.Cols.664-665.

[٤٨] Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum, IV. Ep.XXX.Col.701; Hodgkin, Italy ,V, 377-378.

الجنود وانتهى التذمر بينهم سخطاً على سوء الأوضاع والتدهور المستشرى على كل المستويات [٤٩].

وأراد البابا أن يستغل تحسن العلاقات مع الإمبراطور في المضى قدماً ومواصلة جهوده الدبلوماسية من أجل التوصل إلى سلام مع اللومبارديين، فكتب في شهر مايو عام ٥٩٥م إلى سيفروس Severus مستشار *Scolasticus* الإكسارخ رومانوس، يستجديه أن يقدم النصح لسيده وأن يستخدم حظوته لديه لإقناعه بإحلال السلام، وموضحاً له أن أجيلولف نفسه يميل إلى السلام، وأن هذا السلام ضرورة ولصالح الجميع، وينبغى ألا يكون هو عقبة في طريق السلام. وإذا رفض فليعلم أن أجيلولف لديه الاستعداد لعقد الصلح معنا دونه، وأن عناده يعنى ضياع المزيد من الأراضى، فليضع كل هذه الأمور نصب عينيه ولا يماطل، حتى تكون لدينا فرصة لالتقاط الأنفاس والاستعداد للمقاومة في المستقبل[٥٠].

لكن جهود البابا ومثابرته من أجل السلام، لم تكلل بالنجاح، ووصلته رسالة لاذعة من الإمبراطور البيزنطي، صحيح أن هذه الرسالة فقدت، لكن يمكن استنتاج مضمونها من رد البابا عليها، حينما وجد نفسه متهما بالتبذير والوقاحة والبلاهة والغباء وعدم الولاء والانحياز إلى اللومبارديين [٥١]. فقد حاول في رسالة طويلة إلى الإمبراطور، أن ينفى عن نفسه كل هذه التهم ويوضح له مدى سوء الأوضاع في إيطاليا، وحكمته في التعامل مع اللومبارديين، وأن على الإمبراطور أن يتعامل مع الواقع وليس مع الخيال قائلا: " ..أنت لم تر ما رأيته بنفسى ,حينما شاهدت الأغلال في أعناق الرومان وهم يُجرون أزواجاً كالكلاب ليباعوا عبيداً في أسواق غالة "[٥٢] .

---

٤٩ - Sancti Gregorii Magni , Epistolarum,V. Ep.XXX.Cols.755-756 ; Hodgkin, Italy ,V, 380.

٥٠ - Sancti Gregorii Magni , Epistolarum , V. Ep.XXX. 760,761; Hodgkin , Italy,V, 380-382.

٥١ - Bréhier,Aigrain, Grégoire le Grand, 51; Hodgkin, Italy ,V, 382.

٥٢ - Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum, V. Ep.XL.Cols.767.

لمعرفة تفاصيل الرسالة انظر :

Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum, V. Ep.XL.Cols.766-768.

ورغم سوء الفهم المتبادل بين الجانبين وموقف موريس المتشدد من مفاوضات السلام مع اللومبارديين، ظل البابا حريصاً على علاقته الودية مع الإمبراطور، إلا أن موقفه كان على النقيض من ذلك من نائبه رومانوس، الذي اعتبره السبب في المتاعب التي يعانى منها، والعقبة الكبرى في طريق السلام. ولذلك وصل الخلاف بين روما ورافنا إلى طريق مسدود، وأصبح كل طرف يكيل التهم للطرف الآخر بعرقلة جهوده ومشاريعه. ولاشك في أن أخطاء كل منهما هى التي ساهمت في زيادة حدة هذا الخلاف، من ذلك أن جريجوري الأول كان يتدخل في أمور رومانوس ويعامله بشكل غير لائق ويدل على عدم الاحترام، في الوقت الذي لم يقدر الأخير ــ بوصفه ممثل الإمبراطورية البيزنطية في إيطاليا ــ خطط جريجوري حق قدرها. وبدلاً من أن يتفقا معا على مواجهة اللومبارديين، راح كل منهما ينبذ الآخر ويقلل من شأنه، مما جعل الوفاق بينهما مستحيلاً [٥٣] .ولذلك ظل البابا يشكو من عداء رومانوس، وقد وضحت هذه الشكوى من الرسالة التي كتبها في النصف الأول من عام ٥٩٦م إلى سباستيانSebastian ــ أسقف رسنيوم Resinum في دالماشيا Dalmatia ــ قائلاً : "إن المعاناة التي عانيناها في هذا البلد بسبب صديقكم رومانوس يصعب وصفها"[٥٤].

لقد أصبح البابا على يقين من أن هناك عناداً من الإدارة البيزنطية، التي كانت تعول على دعم الرأى العام لها في رافنا، وأن هذا العناد في غير محله، وأن إيطاليا ما تزال بحاجة إلى اتفاقية سلام مع أجيلولف، لكن حتى تأتى الفرصة المناسبة لعقد هذا السلام، عليه أن يستغل الوقت لتخفيف آلام الحرب وفداء عدد من الأسرى الرومان لدى اللومبارديين. ولذلك كتب إلى ممثله في كمبانيا Campania أنثيموس Anthemius يخبره بأنه سيرسل له الأموال اللازمة لفداء الأسرى الأحرار، ممن عجزوا عن دفع فديتهم، وكذلك الرقيق ممن عجز سادتهم أيضاً عن دفع فديتهم، وعليه أن يسارع في ذلك ويجتهد لدفع أقل مبلغ ممكن من الأموال. وفى هذا الصدد، لم ينس البابا أن يعبر عن شكره في منتصف عام ٥٩٧م لحلفائه القدامى في القسطنطينية وأبرزهم ثيوكتستا ــ شقيقة الإمبراطور ــ وثيودور طبيبه، على ما أرسلوه مؤخرا من

---

[٥٣] - محمود الحويرى، اللومبارديون، ص ٩٦ــ ٩٧؛ أومان، الإمبراطورية، ص ٩٣.

[٥٤] - Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum, V. Ep.XLII.Col.770.

أموال لفداء هؤلاء الأسرى، بعدما أسهب فيما كتبه إليهما عن كل ما اقترفه اللومبارديون من مآسى ومدى معاناة الأعداد الغفيرة من أسرى الرومان لديهم [٥٥].

ولم تمض فترة قصيرة، حتى جاءت الأنباء تحمل خبراً ساراً للبابا، وهو وفاة الإكسارخ رومانوس، ولم يخف البابا غبطته بوفاة غريمه وتعيين آخر هو الإكسارخ كالينيقوس Callinicus ، خلفاً له. ولا عجب في ذلك، فوفاة رومانوس أزالت عقبةً كبرى من طريق البابا [٥٦]. وأتت بإكسارخ جديد كان أقل تشدداً من سلفه، واتخذ موقفاً موقفاً ودياً من البابا، وقد بادله الأخير نفس الود. اتضح ذلك من وصفه للإكسارخ ــ في إحدى رسائله في شهر مايو عام ٥٩٧م إلى الشماس كبريان Cyprian ممثله في صقلية ــ بالابن المحترم والصديق الجديد، وأشار إلى أنه لا يشك في إخلاصه وفى أن انشغاله في وادى البو له علاقة بمفاوضات السلام. لكن على أرض الواقع كانت الأوضاع في إيطاليا ما تزال سيئة، فالمتابع لمراسلات البابا سيجد أن عدد رسائله انخفض إلى النصف تقريباً في عام ٥٩٨م، ويدل ذلك على أنه كان هناك خطرا ما يزال يهدد الجميع ويحول دون اتصال البابوية ببقية أجزاء ايطاليا، وهو الخطر اللومبارديى[٥٧]. وكان ذلك أمراً واضحاً مما كتبه البابا، إلى أسقف تيراسينا Terracina القريبة من البحر والواقعة على بعد نحو ستون ميلا من مدينة روما والتى كانت لا تزال تعانى من المضايقات الحربية للومبارديين، قائلاً " .. علمنا أن الكثيرين يعتذرون عن أداء واجب حراسة الأسوار، ونحن نرجو أن تأخذ الحيطة والحذر، وألا يُعفى أحد من أداء هذا الواجب حتى لو تذرع باسمنا أو باسم الكنيسة، بل الجميع مطالب بذلك، ونحن نضمن، برعاية الرب وبفضل يقظة الجميع، حماية المدينة"[٥٨] .

---

[٥٥] - Sancti Gregorii Magni , Epistolarum,VI,VII, Ep. XXVI,XXVIII,XXXV.Cols.825 - 826,879-884;Hodgkin,Italy,V , 405-407.

[٥٦] - محمود الحويرى، اللومبارديون، ص ٩٧ .

[٥٧] - Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum, VII. Ep.XXII.Cols.775-876; Hogkin, Italy , V, 410-411.

[٥٨] - *"quia vero comperimus multos se a murorum vigiliis excusare , sit fraternitas vestra sollicita ut nullum neque per nostrae vel Ecclesiae suae nomen aut quolibet alio modo defendi a vigiliis patiatur , sed omnes generaliter A compellantur ; quatenus, cunctis vigilantibus ,melius auxiliante Domino civitatis valeat custodia procurari."*

وكيفما كان الأمر، سرعان ما استُأنفت في خريف عام ٥٩٨م مفاوضات السلام مع اللومبارديين، لكن لم يتم التوصل إلى اتفاق سلام إلا في ربيع عام ٥٩٩م، ويمكن معرفة سبب التأخير وطول فترة المفاوضات، من مضمون رسالة كتبها البابا إلى ثيودور Theodore، الذي كان يشغل منصب كيوراتور Curator (عمدة أو رئيس بلدية) مدينة رافنا؛ ويفهم منه أنه بعدما اتفق كلا من الإكسارخ كالينيقوس والملك أجيلولف على بنود اتفاقية السلام، ولأجل تحقيق سلام شامل، كان لابد أن يوقع عليها كل من أريولف دوق سبوليتو وأرخيس دوق بنيفنتوم إضافة إلى البابا نفسه [٥٩]. صحيح أن الدوقين المذكورين وافقا في النهاية على التوقيع عليها، أما البابا فظل يماطل لعدم اطمئنانه لجانب أريولف، إلى أن تدخل الإمبراطور موريس نفسه في هذه المرة وألح على البابا وبشدة ليوافق على إقرار السلام، حينها وافق البابا وأرسل أحد مساعديه ليوقع على الاتفاقية نيابة عنه [٦٠].

لكن لماذا غير الإمبراطور البيزنطي من موقفه الرافض للسلام مع اللومبارديين ؟ يمكن فهم هذا التغيير في ضوء ما كانت تتعرض له الأراضى البيزنطية آنذاك جنوب نهر الدانوب من عمليات عدائية من جانب الآفار، الذين شنوا حملات شرسة على الممتلكات البيزنطية في عامى ٥٩٧م، ٥٩٨م، واستولوا خلالها على مدينة سينجيدنيوم Singidunum (بلجراد) وأجبروها على دفع إتاوة لهم، كما استولوا على مدينة انخيالوس Anchialus وتوغلوا جنوباً حتى وصلوا مدينة تسالونيك (المدينة الثانية في الدولة بعد القسطنطينية)، وكان الدمار والخراب هو السمة الغالبة على كل المدن والقلاع التي مروا بها في بلاد اليونان [٦١]. كما سعى الخاقان الآفارى إثر ذلك إلى

انظر،

Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum, VIII.Ep.XVIII.Cols.921-922 ;Hodgkin,Italy, V, 411-412.

٥٩- Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum, IX.Ep.XCVIII.Cols.1022-1024 ; Hodgkin ,Italy , V, 413-416.

٦٠- Hodgkin,Italy, V, 416.

انظر أيضا، أسامة زكى زيد، اللومبارديون، ص ٢١حاشية رقم ١.

٦١- Evagrius Scholasticus, The Ecclesiastical History of Evagrius Scholasticus,Trans with An Introduction By Michael Whitby,(Liverpool,2000), 301;Theophanes.,The Chronicle of Theophanes Confessor, Byzantine and Near Eastern History A284-

إقامة تحالف مع اللومبارديين ضد الدولة البيزنطية، وأرسل سفارة إلى الملك اللومباردى أجيلولف في ميلان لأجل هذا تحقيق الهدف. والتقت المصالح الآفارية اللومباردية، حينما وجدها الملك اللومباردي فرصة يدعم بها موقفه في مواجهة أي قلاقل داخلية قد يثيرها خصومه، ولذلك وافق على إقامة هذا التحالف لما سيحققه من مصالح مشتركة للجانبين [٦٢].

هنا أدرك الإمبراطور موريس خطورة الوضع وأن المصلحة تقتضى آنذاك عقد سلام مع اللومبارديين كى يتفرغ لمواجهة الخطر الآفارى، وتلك كانت واحدة من الثوابت في السياسة الخارجية للدولة البيزنطية، وهى تجنب الدخول في حرب على جبهتين في وقت واحد، إذ كان ذلك يشكل خطراً محدقا؛ فمع تكاثر الأعداء الذين أحاطوا بالإمبراطورية من كل جانب، كان يبدو مستحيلاً مواجهة هؤلاء جميعاً دفعة واحدة، أو العمل على جبهتين بنجاح تام في كل منهما، لذا كان نجاح الدبلوماسية هنا كبيراً. فإذا كان عليها أن تحرك قواها العسكرية من ناحية معينة، كان عليها بالتالي أن تسخر جهودها الدبلوماسية لتحقيق نصر سياسى في الناحية الأخرى، ربما لا يقل عن النصر العسكري [٦٣]. وهو ما نجح فيه الإمبراطور موريس حينما استجاب له البابا ووافق أن يرعى ويشارك في إقامة سلام مع اللومبارديين، ولاشك في أن البابا كان سعيداً بهذا التصرف من جانب الإمبراطور أياً كانت دوافعه، ولم لا ؟ وقد ظل جريجوري الأول لسنوات طويلة يسعى بكل الوسائل ويحلم بأن يجنب روما ويخلص إيطاليا من خطر اللومباريين أو على الأقل يقلل من آثاره السيئة عليها .

اتضح فرح جريجوري الأول بهذا السلام عندما كتب في أعقاب ذلك إلى كل من الملك أجيللولف [٦٤] وزوجته ثيوديلندا Theudelinda [٦٥] ملكة اللومبارديين

813,Trans with Introduction and Commentary by Mango,C and Scott,R ,With the assistance of Greatrex. G, (Oxford, 1997), 401.

٦٢ - Hodgkin,Italy,V, 422-423.

٦٣ - رأفت عبد الحميد، قواعد الدبلوماسية البيزنطية، في كتاب، بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، ط ١ القاهرة ١٩٩٧م، ص ١٣٤.

٦٤ - ورد هذا الخطاب ضمن رسائل البابا جريجوري الأول ولدى المؤرخ بولس الشماس ومن بين ما جاء فيه : " من جريجوري إلى أجيلولف ملك اللومبارديين، الشكر لعظمتكم على استجابتكم لنداء السلام الذي وجهناه لكم لتحقيق السلام الذي سيحقق فوائد كثيرة لكل الأطراف ....."، انظر :

يشكرهما على ما بذلاه من جهود لإتمام توقيع السلام. وفى محاولة لتقييم ما حدث يمكن القول إن سنة ٥٩٩م كانت من السنوات الحاسمة في التاريخ الإيطالى؛ لأن اتفاقية السلام التي تم توقيعها في تلك السنة ــ مع أنها أدت إلى نوع من الاستقرار في إيطاليا ــ كانت بمثابة اعتراف رسمى من الإمبراطورية البيزنطية ومن البابوية أيضاً بوجود الكيان اللومباردى في إيطاليا، وأنه لم يعد هناك أي أمل في التخلص من اللومبارديين، وإنما فقط الأمل في محاولة إغرائهم بقبول السيادة الاسمية للإمبراطورية، من ناحية، كما كرست هذه الاتفاقية أيضاً السلطة التي تمتعت بها البابوية من ناحية أخرى [٦٦]، بعدما لعب البابا جريجوري الأول دور حمامة السلام بين البيزنطيين واللومبارديين وكللت جهوده بالنجاح.

ورغم توقيع السلام، واصل البابا الاستعدادات تحسباً لأى هجوم لمباردي في أي وقت، وكتب العديد من الرسائل التي وجهها في عامى ٥٩٨م، ٥٩٩م، إلى المدافعين على مختلف الحدود يطالبهم باليقظة وأخذ الحيطة والحذر وعدم التراخى أمام الأعداء. هناك رسالة أيضا وجهها البابا إلى السيد دونيللوس Donellus، مسئول الصرف المالي، يطالبه بسرعة الحضور ليدفع رواتب جنود حامية روما المتمردين، ويحذره من خطورة التباطؤ، إلى غير ذلك من الرسائل الأخرى التي بها الكثير من المعلومات

Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum, IX.Ep.XLII.Col.975; Paul the Deacon,Lombards, 157-158.

ولمعرفة ترجمة هذا الخطاب كاملا، انظر، أسامة زكى زيد، اللومبارديون، ص ٢٣ حاشية رقم ١.

[٦٥] – ورد هذا الخطاب أيضاً ضمن رسائل البابا جريجوري الأول، ولدى المؤرخ اللومباردى بولس الشماس ومما جاء فيه، "من جريجوري إلى ثيوديلندا ملكة اللومبارديين، علمنا من تقرير ابننا الآب بروبوس Probus مدى الكياسة والحماسة لديكم حينما بذلتم قصارى جهدكم من أجل تحقيق السلام ....." انظر :
Sancti Gregorii Magni,Epistolarum,IX.Ep.XLII.Cols.975-976;Paul the Deacon, Lombards, 156-157.

ولمعرفة ترجمة هذا الخطاب كاملاً، انظر، أسامة زكى زيد، اللومبارديون، ص ٢٢ حاشية رقم ١. تجدر الإشارة إلى أن اللومبارديين أظهروا احتراماً غير متوقعا للباباوات، وذلك أمر واضح من رسائل البابا جريجوري الأول إليهم، انظر :

The Lombard Laws, 15.

[٦٦] - Hodgkin,Italy,V, 421.

انظر أيضا، وفاء عبد الحميد، موريس، ص١٢٧.

عن مشاكل الحدود آنذاك وغيرها من الأمور السياسية [٦٧]. ويبدو أن البابا كان متوجسا خيفة من عدم موافقة أجيلولف على تجديد السلام مع البيزنطيين. ولذلك رأى، رغم أن فترة السلام المتفق عليها كانت عامين، ضرورة الاستعداد لهذا الأمر من البداية، فحينما كتب في نفس عام ٥٩٩م، إلى جانياروس Januarius أسقف مدينة كارالياتانو Caralitano، حذره من احتمال عدم تجديد أجيلولف لاتفاقية السلام عند انتهائها، ونصحه ببذل المزيد من الجهد لتحصين المدينة وتخزين المؤن والأقوات اللازمة في قلاعها، كي يصاب العدو بخيبة الأمل إذا ما وصل إليها في أي وقت [٦٨].

غير أن البابا لم يفقد الأمل في أن يوافق أجيلولف على تجديد الاتفاقية، إلى أن حدث ما بدد هذا الأمل عندما أوشكت الاتفاقية على الانتهاء في ربيع عام ٦٠١م. ذلك أن الإكسارخ كالينيقوس انتهز فرصة خروج دوقيتي ترنت Trient وفريولى Friuli القويتين على أجيلولف وانقض على مدينة بارما Parma ظنا منه أن ذلك سيجبر أجيلولف على تجديد اتفاقية السلام وبالتالى يمكن الاستفادة من ذلك في تعديل بنودها لصالح بيزنطة. وكان من بين الأسرى ابنة أجيلولف من زوجته الأولى وزوجها جوتشلك Gottschalk دوق المدينة [٦٩].

إلا أن هذا التصرف جاء بنتيجة عكسية تماما؛ ذلك أن أجيلولف كى ينقذ ابنته من الأسر، تحالف مع خاقان الآفار، كما أرسل سفيراً إلى بلاط ملوك الفرنجة ــ حتى يأمن جانبهم ــ يعبر لهم عن سعادته في أن يعيشوا في سلام مع أصدقائهم اللومبارديين، ثم أعلن الحرب على كالينيقوس. وقاد أجيلولف قواته بنفسه واستولى على مدينة بادوا ودمرها، وقطع بذلك كل سبل الاتصال بين رافنا ــ مقر كالينيقوس ــ وإستريا. وفى عام ٦٠٢ م استولى بمساعدة الآفار ورعاياهم السلاف على إستريا Istria نفسها ثم تقدم نحو رافنا وأوقع الهزيمة بالإكسارخ البيزنطي تحت أسوارها، وبدت إيطاليا وكأنها أصبحت تحت رحمته [٧٠] .

---

٦٧ - Sancti Gregorii Magni , Epistolarum, IX. Ep. CXXIV , Cols.1057-1058 ; Hodgkin , Italy ,V, 424.

٦٨ - Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum , IX.Ep.VI.Col.915; Hodgkin,Italy,V, 415.

٦٩ - Paul the Deacon,Lombards, 165; Hodgkin,Italy,V, 428.

٧٠ - Hodgkin,Italy,V, 429.

انظر أيضا، وفاء عبد الحميد، موريس، ص ١٢٨.

واكب هذه الأحداث السيئة التي ألمت بالبيزنطيين في إيطاليا سقوط الإمبراطور موريس عن عرشه في مدينة القسطنطينية واعتلاء القائد البيزنطي المغمور فوقاس Phocas (٦٠٢ــ ٦١٠م) عرش الدولة البيزنطية. فاستدعى كالينيقوس إلى القسطنطينية وأبدله بآخر هو الإكسارخ سماراجدوس Smaragdus. غير أن هذا التغيير لم يؤثر على استمرار الحرب، حيث واصل إجيلولف حروبه واستولى في عام ٦٠٣م على مدينة كريمونا Cremona ودمرها ثم اتجه نحو جارتها مانتوا Mantua وحطم أسوارها بالمنجنيق واستولى عليها وعلى غيرها من المدن الإيطالية الأخرى، مما أجبر سماراجدوس على إعادة ابنة أجيلولف إلى أبيها والدخول في مفاوضات معه، مما أسفر عن عقد هدنه بين الجانبين في شهر سبتمبرعام ٦٠٣م لمدة ثمانية عشر شهراً، لكن بعدما وقع وادى البو بالكامل تحت سيطرة اللومبارديين، ولم يعد هناك مدينة ذات أهمية من مدن الإمبراطورية البيزنطية تقع شمال خط عرض مدينة رافنا [٧١].

هكذا تدهورت الأوضاع في إيطاليا وتقلصت الممتلكات البيزنطية أمام المد اللومباردى، ووجد جريجوري الأول نفسه مضطراً للتعامل مع الأمر الواقع، فرحب هو ورجال الدين وأعضاء مجلس السناتو، باعتلاء فوقاس العرش، وأرسل يهنئ فوقاس وزوجته على اعتلاء العرش البيزنطي وتضمنت رسالته عبارات ثناء لا تليق بهذا الطاغية الأحمق، كما أرسل بعد نحو شهرين مبعوثاً بابوياً يمثله في البلاط الإمبراطوري لدى فوقاس، وحرص على توطيد العلاقات مع الإمبراطور الجديد من أجل مصلحة بلاده [٧٢].

لكن البابا كان قد امتد به العمر وأصابه المرض وأصبح يعيش أخريات أيامه وظل نحو عام يعانى من تدهور صحته قبيل وفاته في شهر مارس عام ٦٠٤م، ويتضح ذلك مما كتبه في شهر فبراير عام ٦٠٣م " أنا أعيش حياة من الأسى والألم

---

٧١ - Paul the Deacon,Lombards, 167-171; Hodgkin,Italy,V, 431- 434.

٧٢ - Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum,XIII. Ep.XXXVII I, XXXIX. Cols.1287-1289 ; Hodgkin,Italy ,V , 442- 443,445.

انظر أيضا، السيد الباز العرينى، الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٦٠م، ٩٦.

الذي يجعلنى أكره أن تشرق علي شمس يوم جديد ... عزائي الوحيد أنى سأموت ...أتوسل أليكم أن تصلوا من أجلى ... وأن تدعوا ألا يطول بى العذاب " [٧٣].

لكن إذا كان الستار قد أسدل على الدور السياسي للبابا جريجوري الأول، فيجب ألا ننسى أن الرجل في الأساس رجل دين، ولا يعنى اشتغاله بالسياسة وإجادته لها، أنه انشغل عن دوره الديني والقيام بأعباء هذا المنصب الرفيع، بل على العكس من ذلك تنوعت جهوده لتشمل العقيدة وتنظيم شؤون الكنيسة الكاثوليكية في إيطاليا وغرب أوربا ومساعدة الفقراء والمحتاجين إضافة إلى التبشير بالمسيحية، إلى غير ذلك من مختلف الأنشطة التي مارسها من منظور دينى بحت وجعلته من أعظم الشخصيات في التاريخ الكنسى .

إن الدارس للدور الديني للبابا جريجوري الأول في أوربا سيلفت نظره من الوهلة الأولى أن هناك جهات حظيت باهتمامه وبدت فيها جهوده الدينية واضحة جلية أكثر من غيرها، ولم يكن ذلك لدوافع معينة بقدر ما كانت أولويات فرضتها الأوضاع وظروف العصر الذي عاش فيه، وهو عصر كان يشكل ــ من منظور تاريخى ــ نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط، وخلاله سنحت للبابوية فرصة طيبة لتحقيق أهدافها في الناحيتين الدينية والدنيوية.

لقد أخذت شخصية جريجوري الأول تظهر على حقيقتها منذ توليه منصب البابوية، لتعبر عن كثير من الصفات التي امتاز بها أهالى العصور الوسطى، من ولع شديد باللاهوت واعتقاد راسخ في المعجزات وبغض شديد للتراث الكلاسيكى وحماسة للديرية. وإلى جانب كل ذلك اتصف جريجوري العظيم بالتواضع الجم، حتى أنه اتخذ لنفسه لقب" خادم خدام الله Servus Servorum Dei "، وهو اللقب الذي اتخذه الباباوات أيضاً من بعده، زيادة على بساطته المتناهية. ولكنه عند مباشرته لوظيفته البابوية اتصف بالكبرياء والاعتزاز بنفسه وسلطته العليا، التي رأى أنها سلطة عالمية يجب ألا يشاركه فيها أحد. وبناءً عليه أرسل العديد من الرسائل إلى معاصريه من

---

[٧٣] - Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum,XIII.EpXXII,col.1276;Hodgkin,Italy ,V ,P44.

الأساقفة والملوك في الغرب والشرق، ينهاهم فيها عن المفاسد ويأمرهم بالخير والاستقامة [٧٤].

كان طبيعياً أن تأتى إيطاليا في مقدمة اهتمام البابا، وكانت عملية الإشراف على الأوقاف الكنسية [٧٥] بها من أولوياته الرعوية؛ ذلك أن البابوية كانت تشكل مع نهاية القرن السادس الميلادى أكبر مالك للأراضى في غرب أوربا ،حيث كان لها إقطاعات عرفت بالوقف الكنسى، وكانت عبارة عن مساحات شاسعة أقيمت عليها الكثير من القصور الفارهة التي تحيطها أراضى مترامية الأطراف تمارس عليها أنشطة اقتصادية مختلفة. وقد تناثرت هذه الأوقاف على الأراضى الإيطالية، ثم امتدت بعد ذلك لتشمل كل من دالماشيا وغالة وأفريقيا وسردينيا وكورسيكا. وقد أقامت البابوية فيها نظاماً إدارياً من الدرجة الأولى وعلى النسق الرومانى القديم، كما استغلت عائدها في تقديم العون للفقراء والمحتاجين وفداء الأسرى ، إلى غير ذلك من أعمال الخير التي تعود بالنفع على أبناء العالم المسيحى [٧٦] .

وبالتالى شكلت الأوقاف الكنسية مصدراً رئيسياً من مصادر دخل البابوية، ولأهميتها شملها البابا برعايته وحرص على استقلالها من خلال ترسيخ قاعدة صارمة، وهى أن رجال الكنيسة فقط هم المعنيون بإدارة ممتلكاتها وأوقافها، أما عامة الناس فمكلفون بشئون الحرب والزراعة [٧٧]. ولا شك أن إشراف البابا على هذه

---

٧٤ - Donald Logan,F., A history of the Church in the Middle Ages,(London,2002), 48; Philip Schaff,Christian ,Vol. IV , 138.

انظر أيضا :سعيد عاشور، أوربا، ج ١، ص ١١٧.

لمعرفة أمثلة من رسائل جريجوري الأول التي يدعو فيها رجال الدين للاستقامة وينهاهم عن المفاسد، انظر، Sancti Gregorii Magni , Epistolarum, II,Ep.L,LV,Cols.513-514,516-517.

٧٥ - جدير بالذكر، أن الأوقاف الكنسية ازدادت مساحتها في إيطاليا نتيجة لزيادة الأعباء المالية والأخطار الخارجية التي تعرض لها ملاك الأراضى؛ ذلك أن المالك الورع كان يشعر بميل قوى لتسليم ممتلكاته المهددة بالخطر إلى الكنيسة وينقذ نفسه بالدخول في الحياة الديرية، أو جسده وروحه بالهروب إلى القسطنطينية. وقد نجح أساقفة روما في الاحتفاظ بأكبر جزء من هذه الأطيان، انظر، Hodgkin,Italy ,V , 309.

٧٦ - Walter Ullmann, Papacy, 30-31 ,33.

٧٧ - Joanne Diacono,Sancti Gregorii Magni Vita ,**PL** ,ed Migne .75, (Paris, 1849),Lib.II , 15, Col.93 ; Hodgkin,Italy ,V , 329-330.

الممتلكات، رغم أن إدارتها كانت تخضع وبشكل مباشر لوكلاء مشهود لهم بالكفاءة، كان يشكل عبئاً ثقيلاً على كاهله. فقد كتب ــ على سبيل المثال ــ خلال فترة الثمانية عشر شهراً الأولى من بابويته نحو أربعة عشر رسالة إلى وكيله المسمى بطرس، وكان برتبة مساعد شماس ومسئول عن الوقف الكنسى في صقلية ــ التي كانت تتمتع بخصوبة التربة وسعة وقفها الكنسى، الذي ضم إقطاعات في روما وكمبانيا وأبوليا وغيرها من المدن الإيطالية ــ ينهاه في بعضها عن ظلم الرقيق والبسطاء من المسيحيين ممن يعملون بفلاحة الأرض، ويأمره في بعضها الآخر بالدفاع عن ممتلكات الكنيسة حتى ولو بالقوة، وينصحه أحياناً بألا يكون هيناً ليناً ولا قاسياً متشدداً وطلب منه مساعدة بعض الفقراء، ورفع الضرائب عن اليهود [٧٨] العاملين في المزارع الكنسية إذا ما اعتنقوا المسيحية، كما حدد له الضرائب التي يجب تحصيلها من بعض الفئات، واستفسر منه عن الوارد والصادر من الأموال، إلى غير ذلك من الأمور المتعلقة بإدارة الوقف الكنسي وتنمية موارده، وتتم كلها عن مدى دقة جريجوري الأول وكفايته الإدارية [٧٩].

اشتهر البابا جريجوري الأول أيضاً بحرصه الدائم على تنصير البرابرة، كما هو الحال في سردينيا Sardinia، عندما أرسل إلى رجال الدين يحفزهم على ضرورة الاجتهاد لتحويل البرابرة هناك إلى المسيحية، كما استنكر حرق جانياروس Ganuarius أسقف كاجلياري Cagliari لحقول القمح يوم عيد الفصح [٨٠]. عرف عن البابا أيضاً، حبه للفقراء والمحتاجين، فبأمر منه كان هناك يوم محدد من كل أسبوع لتوزيع اللحوم والبقول والجبن والنبيذ عليهم، أما القمح وغيره من المحاصيل الأخرى، فكان يتم توزيعها على هؤلاء في مواسم حصادها. وقد تأثر البابا واشتد

---

[٧٨] - تجدر الإشارة إلى أن اليهود في غرب أوربا قد انتابهم القلق عندما تولى جريجوري الأول منصب البابوية عام ٥٩٠ م، لموقفه المتشدد تجاه عملية التهويد .ويلاحظ أن الكثيرين منهم استغلوا نصيحة جريجوري الأول وقبلوا التعميد كى تسقط عنهم الضرائب، انظر :

Katz Source, S., "Pope Gregory the Great and the Jews" In, **JQR** , New Series, Vol. 24, No. 2 (Pennsylvania, 1933), 119-120,125.

[٧٩] - Sancti Gregorii Magni,Epistolarum,I,Ep.XXXVI,XLI,XLII,Cols.489-491,494-496; Pastoral Rule , 390;Hodgkin,Ital ,V , 309-318.

[٨٠] - Sancti Gregorii Magni ,Epistolarum,IX,Ep.I,Col.959;Hodgkin,Italy,V, 322-323

حزنه عندما علم بوفاة أحد فقراء روما جوعاً واعتبر نفسه هو المسئول عن وفاته. وبصفة عامة، قام البابا بهذه الأعمال الخيرية بوصفه أسقفاً ليس لإيطاليا فحسب وإنما للغرب كله [٨١] .

وكان جريجوري الأول، بصفته أسقفا لروما، مسئولاً عن الكنائس والإيبارشيات في توسكانيا Toscania شمالاً وصقلية جنوباً وعن انتخاب الأساقفة وتصرفاتهم، وكان ينفذ هذه المهام من خلال الشمامسة، وقد حفلت سجلات رسائله بأسماء عدد من هؤلاء الشمامسة، الذين كانت مناصبهم الإدارية تؤهلهم ليكونوا نواباً تنفيذيين عن البابا في سائر مهامه وما يتخذه من قرارات مختلفة[٨٢].

أما على مستوى الكنيسة الإيطالية، فقد أعاد جريجوري الأول صياغة الطقوس والترانيم بالكنائس، وطور موسيقى الترانيم التي ما تزال موجودة حتى اليوم وأنشأ مدرستين للمنشدين، الأولى في اللاتيران والثانية على مقربة من بازيليكا القديس بطرس، وفيهما تعلم التلاميذ أناشيد جريجوري التي حلت محل الأناشيد السابقة. وقسم جريجوري السلم الموسيقى إلى مقاطع حلت محل الثمانية عشر صوتاً موسيقياً السابقة ومحل النغمات الرباعية اليونانية. كما حرص أيضاً على تطبيق قواعد الحياة الديرية الرومانية بشكل صارم، وألا يمثل الكنيسة أحد غير رجال الدين[٨٣]. ودعا أيضاً لسد كل المنافذ في وجه أي تأثير بربري على الكنيسة، وفى هذا الصدد يقول يوحنا الشماس، كاتب سيرة البابا : " لم يكن أحد من خدم البابا من أعلاهم إلى أدناهم متأثراً بالبرابرة سواءٌ في ملبسهم أو كلامهم أو غيره، وكان كل شيء لاتينياً بحتاً " [٨٤] .

أما عن علاقته الدينية بالقسطنطينية، فكانت متقلبة وغير مستقرة، وكان ذلك أمراً طبيعياً بعدما زعم أباطرة بيزنطة واحداً تلو الآخر أنهم نواب السيد المسيح على الأرض، وبعد ما حدث من جدل طويل بين كنيستى روما والقسطنطينية حول أحقية

---

٨١ - Hodgkin,Italy,V , 320-322.

٨٢ - Bréhier, Aigrain, Grégoire le Grand, 39-40.

٨٣ - Joanne Diacono, Vita,,Lib.II, 6,Col.90; Hodgkin,Italy ,V, 328-329.

٨٤ - Joanne Diacono, Vita,,Lib.II , 13 ,Col.9.

كل منهما بالسلطة العالمية، وغالباً ما كان الإمبراطور يؤيد مزاعم كنيسة القسطنطينية ويزدرى إدعاءات كنيسة روما[٨٥].

لقد شهدت السنوات الخمس الأولى من بابوية جريجوري الأول هدوءا في العلاقات بين الجانبين حتى عام ٥٩٥م، وهو العام الذي ثارت فيه ثائرة البابا عندما وجه بطريرك القسطنطينية يوحنا الأسرع رسالة إلى أخوه سابنيانوس Sabinianus ــ مبعوثه في البلاط البابوي بروما ــ وأخذ يكرر في كل سطر منها اسمه مقرونا بلقب البطريرك العالمى Ecumenical Patriarch. ورغم انشغال البابا بالخطر اللومباردى آنذاك، حمَّل رسول البطريرك، حقيبة مليئة بالرسائل التي وجهها للبطريك وللإمبراطور موريس وزوجته وغيرهم من المسئولين البيزنطيين، نافياً فيها أحقية البطريرك بلقب عالمى ونصحهم جميعاً أن يخلصوه من هذه الرغبة الممقوتة كما وصفه لهم بالفخور بالمتكبر والشرير والأحمق وأنه تجاوز كل حدوده، ثم هدد بقطع التواصل مع البطريرك إذا لم يتراجع عن هذا الزعم، ونوه إلى أنه حظر على أخيه سابنيانوس أن يتصل به إلا بعد تصحيح هذا الخطأ. كما كتب إلى الأخير مستنكراً ما فعله أخوه البطريرك المبجل قائلاً : " من الواضح أن أخانا يوحنا فعل ذلك ليورطنى، فإما أن أؤيده في ضلاله، أو أعارضه فيه، وحينها يُعرضنى لتحدى الإمبراطور... لا

---

٨٥ - Barry, Monarchy, 51; Hodgkin,Italy ,V , 390.

انظر أيضا، نورمان ف. كانتور، التاريخ الوسيط، قصة حضارة، البداية والنهاية، القسم الأول، ترجمة وتعليق دكتور قاسم عبده قاسم، ط ٥، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٢٢٧.

جدير بالذكر، أن البابوية استندت في إدعاءاتها بأحقيتها بالسلطة العالمية إلى ثلاثة أشياء تميزت بها كنيسة روما عن غيرها من بقية الكنائس الأخرى، شرف انتسابها للقديس بطرس، ومكانة مدينة روما التاريخية، وقرار مجمعى(الفصل السادس من بيان مجمع نيقية الذي حرفته روما بأنه يقضى بتمتع كنيسة روما بالريادة الدائمة). لكن يرى بعض النقاد أن مكانة كنيسة روما، إن هى إلا ثمرة لمحاولات ناجحة من الاحتيال، ودللوا على ذلك فيما يعرف بهبة قسطنطين Donation of Constantine والمراسيم المزيفة False decretals، انظر،

Walter Ullmann, Papacy , 16.

انظر أيضا، هــ .و. ديفز، أوربا في العصور الوسطى، ترجمة الدكتور / عبد الحميد حمدى محمود، ط ١، الإسكندرية، ١٩٥٨م، ص ١١٥ .

يعقل بعدما اكتشفنا أن اليونانيين لن يدافعوا عنا ضد أعداءنا، وأنفقنا في سبيل ذلك الذهب والفضة ..أن نفقد أيضاً عقيدتنا " [٨٦].

على الجانب الآخر، كان الإمبراطور موريس راغباً في أن يسود السلام في الكنيسة، وخاطب جريجوري بلهجة طيبة، ورد عليه الأخير برسالة طويلة ومنمقة امتدح فيها حماسه وسعيه الدائم لإحلال السلام في الكنيسة، وأشار إلى أن بطريرك القسطنطينية بغروره وكبريائه تسبب في الكوارث التي حلت بالإمبراطورية على أيدى البرابرة قائلا :" لقد وقعت كل أوربا في قبضة البرابرة، فدمروا المدن والقرى وهرب السكان من الأقاليم "، ثم عبر عن رفضه لأى تطاول على سلطته ومكانته [٨٧].

كتب البابا أيضاً إلى الإمبراطورة قسطنطينة [٨٨] يشكرها على انحيازها إلى القديس بطرس ضد أولئك المتكبرين ويبشرها بنعيم الدنيا والآخرة، ويثنى على تصرف زوجها الإمبراطور، وشاكيا لها من إعلان البطريرك نفسه أسقفاً عالمياً، وأن ذلك من علامات الساعة، ثم ذكر الأموال الضخمة التي تنفقها الكنيسة في روما على رجال الدين والفقراء والمحتاجين وتلك التي تدفعها إلى اللومبارديين قائلاً: " لقد مضى

---

[٨٦] Sancti Gregorii Magni , Epistolarum,V,Ep.XIX,Cols.743-744; Hodgkin,Italy,V,391--=395; Philip Schaff,Christian ,Vol. IV, 141-142;Hutton, Gregory the Great , 247.

تجدر الإشارة إلى أن كلا من الإمبراطورين ليو الأول Leo I(٤٥٧ــ٤٧٤م) وجستنيان الأول منح بطاركة القسطنطينية لقب الأسقف المسكونى أو العالمى، ثم أكد ذلك مجمع القسطنطينية عام ٥٨٨م ومنح نفس اللقب ليوحنا الأسرع وخلفائه من بعده. وقد شهد جريجوري ذلك بنفسه أثناء إقامته بالقسطنطينية مبعوثاً رسولياً للبابوية، ولما علم البابا بلاجيوس الثانى بذلك احتج على قرارات المجمع بتوصية من جريجوري، الذي قاطع يوحنا الأسرع وأعلن أن قرارات هذا المجمع باطلة لأنها شذت عن القاعدة، انظر،

Philip Schaff,Christian ,Vol. IV , 141; Hodgkin,Italy ,V , 391.

[٨٧] Sancti Gregorii Magni , Epistolarum,V, Ep.XX ,Cols.744-747; Hodgkin,Italy ,V,-396-398.

ولمعرفة نص رسالة البابا كاملاً إلى الإمبراطور موريس، انظر :

Sancti Gregorii Magni , Epistolarum,V,Ep.XX,Cols.744-748.

[٨٨] - تجدر الإشارة إلى أن سجل المراسلات الخاص بالبابا جريجوري الأول حفظ العديد من الرسائل التي وجهها إلى سيدات في مواقع مختلفة، سواء كانت إحداهن إمبراطورة أو ملكة أو تعمل في البلاط الإمبراطورى أو في الشؤون العامة أو غير ذلك، وكان بعضها يتعلق بأمور سياسية أو اجتماعية أو رداً على استفسار إحداهن أو إبداء رأيه في بعض القضايا .. ألخ، انظر،

Wilkins,W., " Submitting the Neck of Your Mind" ،Gregory the Great and Women of Power, In**, CHR** , Vol. 77, No. 4 (Washington, 1991), 584.

نحو سبع وعشرين سنة ونحن نعيش في هذه المدينة تحت سيوف اللومبارديين، وما ندفعه من خزانة الكنيسة كى نعيش بينهم لا نستطيع تقديره " [٨٩].

يلاحظ أن البابا أسهب في رسالته الأخيرة، في الخلاف الديني مع القسطنطينية، ولذلك فهذه الرسالة مهمة بالنسبة للتاريخ الكنسى، أكثر من أهميتها بالنسبة لتاريخ إيطاليا، بل ستكون عظيمة الأهمية إذا ما استُخدمت في إطار تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، أو بين البوسفور والتيبر؛ ذلك أن التباعد المتزايد بين الكنيستين، مهد الطريق يوماً بعد الآخر نحو انفصال الشرق عن الغرب. ولو كان هناك فعلا إخلاص وود بين الباباوات والبطاركة طوال القرون السادس والسابع والثامن الميلادى، لما نادى الناس ــ على سبيل المثال ــ في شوارع روما أن يكون رئيس بلاط الفرنجة أوغسطسا بعد ما حققه من بعض الإنجازات[٩٠].

لقد أصبح الجدل بين كرسى روما والقسطنطينية بمثابة معركة تعادل فيها الجانبان، وكان من ممكن أن يطول أمدها، لولا أن مات البطريرك يوحنا الأسرع في العام التالى من وصول رسالة جريجوري الأول إلى القسطنطينية. وسعى الإمبراطور إلى تهدئة الأمور وتريث لبعض الوقت في اختيار بطريرك جديد، إلى أن وقع اختياره على أحد أصدقاء جريجوري الأول، وهو سيرياكوس Cyriacus. ورداً على ذلك كتب جريجوري إلى الإمبراطور يشكره على هذا الاختيار، كما كتب للبطريرك الجديد أكثر من رسالة، غلب عليها الود، مما أدى إلى تحسن العلاقات بينهما [٩١].

وقد أعطى الهدوء في العلاقة مع كنيسة القسطنطينية، البابا الفرصة ليكثف نشاطه الديني،لاسيما بعد عقد السلام مع اللومبارديين عام ٥٩٨ــ ٥٩٩م، حيث زالت كل العوائق وأصبحت الطرق مفتوحة وآمنة أمام رسل البابا ليقوموا بدورهم في تنظيم

٨٩- Sancti Gregorii Magni , Epistolarum,V,Ep.XXI,Cols.748-750.
" Viginti autem jam et septem annos ducimus ,quod in hac urbe Inter Langobardorum gladios vivimus. Quibus quam multa hac ab Ecclesia quotidianis diebus erogantur ,ut inter eos vivers possimus ,suggerenda non sunt."

ولمعرفة نص رسالة البابا إلى الإمبراطورة كاملاً، انظر :

٩٠- Sancti Gregorii Magni , Epistolarum,V,Ep.XX,Cols.748-751.
Hodgkin, Italy ,V , 400-401.

٩١- Sancti Gregorii Magni , Epistolarum ,VII , Ep.IV,VI,XXXI, Cols.853-858,859-860, 888-889; Hodgkin, Italy, V, 401-402;Hutton,Gregory the Great, 247.

الكنائس ومتابعة نشاط رجال الدين وغير ذلك من الأمور الدينية. وقد بلغ عدد الرسائل التي أرسلها البابا في هذا العام وحده، سواء للمدافعين عن الحدود أو للأساقفة ورجال الدين وغيرهم في إيطاليا وغرب أوربا، نحو مائتين وثمان وثلاثين رسالة [٩٢]، كان من بينها رسالة واحدة فقط وجهها إلى أرخيس دوق بنيفنتوم، خاطبه في بدايتها بقوله "ولدنا في العقيدة "[٩٣]. وهو ما يستنتج منه تخلى أرخيس عن أريوسيته واعتناقه الكاثوليكية.

أما في عام ٦٠٢م فقد حققت الكنيسة الكاثوليكية أكثر من نجاح، الأول : عندما وضعت ثيوديلندا مولودها الأول أدالوالد Adalwald وقام بتعميده أساقفة كاثوليك[٩٤]. والثانى : عندما أذعن الإمبراطور البيزنطي فوقاس لرغبات البابا وأصدر مرسوماً أكد فيه أسبقية كنيسة روما على كافة الكنائس الأخرى [٩٥]. وتلك كانت رغبة البابوية ومنتهى آمالها، وهو انتشار الكاثوليكية وسبق كنيستها على ما عداها من الكنائس الأخرى.

على أي حال، كان من بين الدروس التي تعلمها البابا جريجوري الأول أثناء عمله سفيراً بالقسطنطينية بعدما شاهد الحكومة الإمبراطورية وهى تضرب بمزاعم الكنيسة الرومانية أحقيتها في الريادة، عرض الحائط، أن بابا روما كى يؤكد المزاعم الرومانية في مواجهة دعاوى القسطنطينية، ليس أمامه إلا أحد أمرين : إما أن يقبل بالمشروع البيزنطي، الذي كان ينظر للبابا على أنه مجرد بطريرك تابع ولا يتمتع بأى سلطة حقيقية، أو الابتعاد عن الأعمال الإدارية البحتة، وبالمفهوم الذي كان يقصده كل من البابا ليو الأول وجلاسيوس الأول، والقيام بجهود دينية كبيرة يؤكد بها أحقية كنيسته في ريادة العالم المسيحى وينافس بها القسطنطينية في الحقل الكنسى. ولا

---

٩٢ - Hodgkin, Italy ,V , 424-425.

قام المؤرخ هودكن Hodgkin بإعداد جدول بعدد رسائل البابا جريجوري الأول عام ٥٩٨ ــ ٥٩٩م وحدد وجهة كل منها، انظر، Hodgkin,Italy ,V , 425.

٩٣ - Sancti Gregorii Magni , Epistolarum ,XII , Ep.XXI,Col.1231 .

٩٤ - Hodgkin, Italy ,V , 428,430.

٩٥ - Pastoral Rule, 397.

انظر أيضا، وسام عبد العزيز فرج، دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية ــ١ــ (٣٢٤ــ١٠٢٥م)، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص ١١٢.

غرابة في أن يختار البابا جريجوري الأول البديل الثانى وأن يبحث عن أماكن بعيدة عن اهتمامات الحكومة الإمبراطورية، إلى أن وجد ضالته في كل من غالة وبريطانيا وأسبانيا [٩٦].

اتضحت مظاهر العلاقة المبكرة بين البابا وكنيسة غالة Gaul (فرنسا) من خلال رسالتين أرسلهما، الأولى : في شهر يونيو عام ٥٩١م حينما قدم فيها الشكر لاثنين من أساقفة الفرنجة: هما، فيرجيل Virgilius في إقليم آرل Arles، وثيودور في إقليم مرسيليا Marseilles، على تهنئتهما له بتوليه منصب البابوية [٩٧]، والثانية كانت في عام ٥٩٣م، شكر فيها البطريق دينامس Dinamius، حاكم إقليم مرسيليا الفرنجى ،على مبلغ أربعمائة صولدى غالى كان قد أرسلها مؤخراً إلى روما [٩٨]. ثم سنحت الفرصة أمام البابا في عام ٥٩٥م ليقترب أكثر من كنيسة غالة، حينما أراد شيلدبرت Childebert ــ ملك أوستراسيا Austrasia وبرجندى Burgundy وأكواتين Aquitaine وسيد كل أساقفة جنوب مملكة الفرنجة ــ من فرجيل أسقف آرل أن يطلب من البابا الباليوم Pallium(عباءة الأسقفية) ومنصب النائب الرسولى Apostolic Vicariate في غالة، وكتب الأخير للبابا رسالة يلتمس فيها هذا الطلب. فرأى جريجوري الأول أن تلبية هذا الطلب سيقوى من علاقته مع كنيسة غالة وسيمكنه من ممارسة سلطانه عليها بشكل أكبر مما هو عليه الآن. وبالفعل أرسل في شهر أغسطس عام ٥٩٥م إلى فرجيل معطف الأسقفية وأنعم عليه بمنصب النائب الرسولى في الممالك الثلاثة (أوستراسيا ــ برجندي ــ أكواتين) وزاد على ذلك بأن أعطاه سلطة تسوية بعض المسائل البسيطة، أما المسائل الصعبة فكان لابد أن تنظر في مجمع يضم نحو اثني عشر أسقفا، كما طلب منه ألا يرفع إلى روما إلا المسائل شديدة الأهمية فقط. وسرعان ما صدرت الأوامر إلى كل الأساقفة التابعين لسيادة

---

٩٦ - Walter Ullmann, Papacy, 34.

٩٧ - Sancti Gregorii Magni , Epistolarum ,I , Ep.XLVII,Cols .509-511.

٩٨ - Sancti Gregorii Magni , Epistolarum , III ,Ep.XXXIII,Cols .533-534; Dudden,F.H., Gregory the Great , his Place In history and Thought, Vol. II , (London,1905), 55-56.

شيلدبرت، بضرورة طاعة النائب الرسولى الجديد والاجتماع به عندما يدعوهم لذلك، وعدم سفرهم بعيداً عن أبرشياتهم دون إذنه[٩٩] .

وقد انتهز البابا فرصة هاتين الرسالتين إلى كل من شيلدبرت وفرجيل، وعبر بوضوح عن امتعاضه من الأمراض التي انتشرت في كنيسة غالة، كالسيمونية (شراء المناصب الدينية) وتعيين العامة في المناصب الأسقفية، ورأى ضرورة وضع حد لهذه الانتهاكات المذرية وتطهير الكنيسة مما ألم بها على أيدى هؤلاء الفاسدين ممن انضموا إلى صفوف رجال الدين بدون وجه حق، لأنهم لا يعرفون حتى أبسط مبادئ العقيدة. ثم أردف هاتين الرسالتين برسالتين كتبهما في شهر سبتمبر عام ٥٩٥م : واحدة إلى الملكة برنشيلدس Brunichildis، يتوسل إليها أن تشمل برعايتها القس كانديدس Candidus، الذي أرسله ليتولى الإشراف على الوقف الكنسى، وأخرى إلى الملك شيلدبرت صاحب العقيدة الكاثوليكية الصحيحة، يوصيه بالأمر ذاته[١٠٠].

لكن لسوء حظ البابا أن توفى شيلدبرت فجأة في العام التالى وهو ما يزال في السادسة والعشرين من عمره، تاركاً ولدين قاصرين وغير شرعيين، وأسفت روما كثيراً لوفاته، فقد كان دائم الحرص على كسب صداقة جريجوري الأول، في وقت كان بقية زعماء الجرمان لا يهتمون كثيراً بآراء البابا سواء كانت لصالحهم أو ضدهم. وحرص البابا، في أطار سعيه للإبقاء على علاقات طيبة مع غالة، ألا يُغضب برنشيلدس ــ أرملة شيلدبرت ــ بأى رسائل يرسلها إلى أشد أعدائها، ملك نستريا وزوجته فريدجندسFredegundis، فتسيء برنشيلدس الظن به، ويفقد حينها حمايتها لأى بعثة تبشيرية قد يرسلها لغالة في المستقبل [١٠١].

وفى عام ٥٩٧م طلبت الملكة برنشيلدس من جريجوري أن يمنح عباءة الأسقفية إلى صديقها ومستشارها سياجريوس Syagrius، أسقف أوتون Autun ،الذى كان يعتبر واحداً من أعظم أساقفة غالة. ولم يتردد البابا في الموافقة على طلب الملكة، لكنه أخبرها أن تسليم العباءة لن يتم إلا بعد إكمال الإجراء الرسمى المتبع في مثل هذه

---

٩٩ - Sancti Gregorii Magni,Epistolarum ,V,Ep.LIV,LV,Cols.785-789; Dudden, Gregory - Vol.II, 56-57.

١٠٠ - Sancti Gregorii Magni , Epistolarum ,VI ,Ep.V,VI,Cols .796-799; Dudden,Gregory, - Vol.II, 57-59; Hutton, Gregory the Great, 258.

١٠١ - Hodgkin,Italy,V, 345;Dudden,Gregory, Vol.II, 59-60.

الحالة، وهو أن يكتب سياجريوس طلباً يوقع عليه بعض أساقفة الإقليم ويقدموه لكانديدس. وكان ذلك تصرفاً ذكياً من البابا، ففى الوقت الذي أرضى فيه الملكة ولن تجد شيئاً تعترض عليه هى أو سياجريوس، كان مشهد أساقفة غالة المغرورين وهم يقدمون هذا الطلب صاغرين لنائبه كانديدس، سيرفع من مقام الكرسى الرسولى وهيبته بينهم. ولم يكتف البابا بذلك، وإنما حث الملكة في مقابل موافقته على طلبها، أن تصدر مرسوماً يقضى ببعض الإصلاحات في الكنيسة حتى تخضع كاملة لنفوذها، وأن تتعهد بالقضاء على السيمونية وعلى ظاهرة ترسيم العامة للمناصب الأسقفية، وكذلك بعض مظاهر الردة المستشرية في بلادها، كعبادة الأشجار ورءوس الحيوانات وغيرها [١٠٢].

لقد كان جريجوري الأول حريصاً على الاستفادة قدر المستطاع من وراء هديته التي اقتنصت منه لسياجريوس، ولم يرسل العباءة الأسقفية إلى غالة إلا بعد مرور نحو عام عن طريق الراهب سيرياكوس، الذي حملها بدوره إلى كانديدس نائبه المشرف على الوقف الكنسي. لكن لن تُسلم لسياجروس قبل أن يعطى وعداً بأنه سيدعو لعقد مجمع برئاسته ويشارك فيه سيرياكوس مع بقية الأساقفة، ليصدروا جميعا القوانين اللازمة للقضاء على السيمونية وعلى ظاهرة إقامة الإناث في بيوت رجال الدين، وتؤدى في النهاية لإصلاح الكثير من المفاسد الأخرى، إضافة إلى دراسة سياجروس الترتيبات اللازمة لعقد مجمع ولو مرة واحدة كل عام، وكتابة تقرير واف عن كل ذلك يتم رفعه إلى روما عن طريق كل من سيرياكوس وأرجيوس Aregius أسقف جاب Gap [١٠٣].

وهكذا كان جريجوري الأول على علم تام بأحوال كنيسة غالة، من خلال التقارير التي كانت تأتيه خاصة من نائبه كانديدس، ولإصلاح الفساد بها أرسل الراهب سيرياكوس ليشرف على أعمال الإصلاح هناك، وحينما منح سياجريوس العباءة الأسقفية منحها كرشوة له كى يساعد سيرياكوس على أداء مهمته. كما وجه البابا رسائل لأسقف ليون وغيره من الأساقفة، وكذلك للملكة برنشيلدس والملكين

١٠٢- Sancti Gregorii Magni, Epistolarum , IX ,Ep. XI , Cols,951-955 ; Ian Wood, " The Mission of Augustine of Canterbury to the English " In **,Sp** ,Vol.69 , No.1. (Cambridge, 1994) , 5;Dudden, Gregory,Vol.II, 60-62; Wilkins,Women,583

١٠٣- Dudden,Gregory, Vol. II, 64.

الصغيرين، يحسهم جميعاً على التكاتف من أجل إصلاح الكنيسة، ويبين لهم أن ذلك يصب في مصلحتهم ــ على اعتبار أنهم مسئولون عن رعاياهم أمام الرب ــ ومصلحة بلادهم أيضاً. لكن جهود البابا قوبلت بمعارضة شديدة على كل المستويات . فالبلاط لم يكن ليتنازل مطلقاً عن أي من امتيازاته، وعدد كبير من الاساقفة كانوا يتاجرون بالسيمونية، وفيرجيل الآرلى كان ضعيفاً ولا يعول عليه، وآثريوس Aetherius الليونى كان حاقداً على كرسى أوتون، وسياجريوس كان مجاملاً ولا يجرؤ على اتخاذ أي قرار لا تريده الملكة، وبالتالى أمست جهود البابا لإصلاح كنيسة غالة في مهب الريح وكادت أن تفشل، وهى ما تزال في مهدها [١٠٤].

إلا أن البابا بعزيمته القوية لم يفقد الأمل، وعاد يناشد كل الأطراف السابقة مرة أخرى في عام ٦٠١م، ويطالبهم إعادة المحاولة وبذل الجهد لإنقاذ الكنيسة، ومواجهة كل المفاسد التي ألقت بظلالها السيئة على الحياة الديرية [١٠٥] بصفة عامة ورهبنة النساء بصفة خاصة، وجعلتها وصمة سيئة على جبين المملكة المسيحية. كما أرسل ولأول مرة إلى شلوتوشارChlotochar ــ ملك نستريا ــ يشكره على استضافته لأوغسطين Augustine ورعايته له عند مروره ببلاده وهو في طريق بعثته لبريطانيا، ويحثه هو ورجاله على سرعة عقد مجمع لمحاربة السيمونية في بلاده. ولا نعرف الدافع الحقيقى الذي جعل جريجوري الأول يكتب لملك نستريا، لكن ربما شعر البابا أن قوة برنشيلدس في طريقها للانهيار بعدما طُردت من أوستراسيا عام ٥٩٩م، ولإيجاد بديل لها حرص على أن يكسب صداقة شلوتوشار[١٠٦].

على أي حال، لم تجد الدعوة الأخيرة للبابا الاستجابة الكافية هى الأخرى، وبالتالى ضاعت جهوده في غالة سدى، لأن البلد لم تكن مُتهيئة بعد لاستيعاب مثل هذه

---

١٠٤ - Dudden,Gregory,Vol.II, 64-67.

١٠٥ - جدير بالذكر أن جهود جريجوري الأول في غالة امتدت لتشمل تطوير الحياة الديرية أيضا، يتضح ذلك من الرسائل التي كان يكتبها والنصائح التي كان يسديها بين الحين والآخر لرجال الدين هناك يوضح لهم =الصفات الواجب توافرها في الراهب الصالح، إلى غير ذلك من الأمور المتعلقة بالحياة الديرية والرهبنة في غالة، لمزيد من المعلومات عن جهود جريجوري الأول لتطوير الحياة الديرية في غالة، انظر :
Dudden,Gregory,Vol.II, 77-97.

١٠٦ Sancti Gregorii Magni, Epistolarum ,XI ,E LXI,Cols.1180-1181;Dudden,Gregory, Vol.II, 67-69; Ian Wood, Augustine, 6;Hodgkin,Italy ,V , 323 .

الجهود الإصلاحية الجبارة؛ ذلك أن الفساد السياسي أدى بمرور الزمن إلى الفوضى والفساد الأخلاقي، ووسط هذه الفوضى باءت محاولات جريجوري الأول لتطبيق القانون بالفشل، إلا أنه نجح في رسم صورة مثالية للمجتمع المسيحى أمام شعب شبه وثنى، وفى إقامة نوع من العلاقة بينه وبين الكنائس في غالة، وخصوصا ما واقع منها في مدن الشرق والجنوب، وركز بشكل أكبر على علاقة الكرسى الرسولى بأمراء الفرنجة، وكان مستعداً إلى أبعد حد أن يعترف بالعلاقة القائمة بين هؤلاء الأمراء والكنيسة، بهدف أن يتخذ من بلاطهم وسيلة لإصلاح تلك الكنيسة، التي كان إصلاحها سيؤدى إلى صلاح المجتمع كله. ومن ثم فإن الهدف الحقيقي لجريجوري الأول كان إصلاح الكنيسة وليس البلاط، إصلاح الأسقف وليس الأمير وسلك كل الطرق للوصول لهذا الهدف، غير أن الكنيسة في غالة كانت بحاجة لفترة طويلة من الزمان حتى تتعافى من تأثير غزوات الفرنجة، وبالتالى فإن جهود البابا لم تُأت ثمارها المرجوة إلا بعد نحو قرنين من الزمان في عصر شارلمان [١٠٧] .

كيفما كان الأمر، إذا كان جريجوري لم يحقق النجاح المطلوب في غالة، فهناك ميدان آخر حقق فيه قدراً كبيراً من النجاح وهو إنجلترا، فإلى جريجوري الأول يرجع الفضل في انتشار المسيحية بين الإنجليز، وإعادة العلاقات المقطوعة بين بلادهم والعالم الرومانى منذ فترة طويلة من الزمن [١٠٨] .

هناك قصة تم تداولها في إنجلترا في بداية القرن الثامن الميلادى ،وذكرها المؤرخ الإنجليزى بيده Baedae [١٠٩] حول الأسباب التي دفعت البابا جريجوري الأول لإرسال المبشرين إلى إنجلترا عام ٥٩٦م، ومفادها: " أن جريجوري شاهد ذات يوم وهو بالسوق في روما، أطفال وسيدات جميلات تم عرضهم للبيع، فسألهم من أي

---

١٠٧ - Dudden,Gregory,Vol.II, 69-70.

١٠٨ - Dudden,Gregory,Vol.I, VI.

١٠٩ - ولد بيده في مدينة وارموث أو جاررو jarrow عام ٦٧٣م، ونشأ يتيما بعد وفاة والداه وهو صغير السن، حيث قضى حياته في دير القديسين بطرس وبولس، وانخرط بعد ذلك في سلك الرهبانية، ثم رسم شماساً عام ٦٩٢م ثم سيم قساً عام ٧٠٣م، وتوفى عام ٧٣٥م، بعد حياة حافلة بالصلوات والدراسة، وقد شملت كتاباته كل فروع المعرفة المعروفة في عصره، وإليه يرجع الفضل في التأريخ لإنجلترا في تلك الفترة المظلمة من تاريخ العصور الوسطى، انظر، إسحق عبيد، مدينة الله، ص ١٨٥.

البلاد أنتم ؟ فأجابوا من جزيرة بريطانيا، فسألهم ثانية، هل ما تزالون على الوثنية ؟ قالوا نعم، فتنهد الرجل من أعماقه آسفاً، أن يكونوا بهذا الجمال وعقولهم خالية من نعمة الهداية، ثم سألهم عن اسم شعبهم، قالوا الإنجليز Angles (الملائكة)....إلى غير ذلك من الأسئلة التي على أثرها عاد إلى البابا بندكت الأول وألح عليه أن يرسل لهؤلاء الناس بعض المبشرين لعلهم يهتدون، وأنه على استعداد ليقود مثل هذه الإرسالية إذا وافق له على ذلك "[١١٠].

ثم خرج، بعد موافقة البابا بندكت الأول Benedict I (٥٧٥-٥٧٩م)، على رأس إرسالية متجها إلى بريطانيا، لكن بعد ثلاثة أيام من انطلاق البعثة أرسل إليه البابا يطلب عودته، بعدما اتهم سكان روما البابا أنه كان ينوى التخلص من جريجوري بهذه الرحلة الشاقة [١١١].

إذا كان هذا هو السبب المباشر لتوقف هذا المشروع الضخم، فما هو السبب الذي جعل جريجوري يستأنفه مرة أخرى عام ٥٩٦م ؟ لا يستبعد الباحث أن يكون الخلاف الذي حدث في نفس التوقيت تقريباً مع بطريرك القسطنطينية يوحنا الأسرع حول اللقب العالمى، كان سبباً مباشراً أيضاً لتعجيل البابا بمسألة التبشير بين الإنجليز، ليجد حقلاً جديداً يباشر فيه مهامه الدينية فيرضى غروره الروماني ويبرهن على عالميته أمام خصمه العنيد. ليس ببعيد أيضاً، أن يكون تحديه للكنيسة الكلتية الأيرلندية، التي توغلت بعثاتها التبشيرية في شمال إنجلترا محرزة قصب السبق في تحويل الإنجليز الوثنيين إلى المسيحية، سبب آخر بعدما رأى جريجوري الأول في ذلك خطراً يهدد بحدوث انقسام بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة الكلتية [١١٢].

أياً كان السبب، فالأمر الذي لا ريب فيه هو أن تعميد الإنجليز، الذين كان قد مر على مجيئهم إلى بريطانيا نحو قرن ونصف من الزمان، يعتبر من أعظم المشاريع التبشيرية في العصور الوسطى [١١٣].

---

١١٠ - Baedae, Historica,Vol.I, 201-203.

١١١ - Baedae, Historica,Vol.I, 203; Philip Schaff, Christian ,Vol. IV, 138; Hodgkin, Italy ,V , 291-292.

١١٢ - كانتور، التاريخ الوسيط، ص ٢٢٩.

١١٣ - Baedae, Historica,Vo,l, 103;Walter Ullmann,Papacy , 34.

وسرعان ما شكل البابا بعثة تبشيرية بقيادة أوغسطين رئيسه السابق في دير القديس أندرو، وعينه أسقفاً للإنجليز في حالة نجاح بعثته، ثم خرجت هذه البعثة، بعدما قدم لها البابا النصح والإرشاد، متجهة إلى بريطانيا عبر غالة، التي أرسل البابا إلى كبار أساقفتها يطالبهم بسرعة تسهيل مرور هؤلاء المبشرين وتقديم العون لهم؛ ذلك أن دعم الفرنجة كان مهما لإنجاح هذه البعثة. لكن بعد وصول هؤلاء المبشرين إلى غالة انتابهم الرعب مما سمعوه هناك عن وحشية الإنجليز وغرابة لغتهم. ولذلك أسرعوا بالعودة إلى روما وطلب أوغسطين من البابا إعفائه من هذه المهمة الصعبة. غير أن إصرار البابا وحماسته وتشجيعه لأوغسطين ورجال بعثته وحثهم على التسلح بالإيمان، جعل الأخير يُعرض عن قراره ويستأنف رحلته التبشيرية مرة أخرى إلى إنجلترا عبر غالة [١١٤].

وأرسل البابا رسالة [١١٥] إلى فيرجيل أسقف آرل يطلب منه الترحيب بأوغسطين عند مروره ببلاده وهو في طريقه إلى بريطانيا. واصطحب أوغسطين معه من غالة ــ بأمر من البابا ــ عدداً من الفرنجة ليكونوا مترجمين لأعضاء البعثة. وبعد رحلة شاقة نجح أوغسطين ورفاقه، وكان عددهم نحو أربعين رجلاً، في الوصول بسرعة غير متوقعة إلى بريطانيا عام ٥٩٧م وتحديداً إلى جزيرة ثانت Thanet الصغيرة، التابعة لجزيرة كنت Kent الإنجليزية والواقعة في الطرف الشرقى منها. وكان اثلبرت Ethelbert ملك كنت القوى قد سمع بالمسيحية بعدما قبلت أميرة مسيحية من أميرات الفرنجة وهى برثا Bertha أن تتزوجه، شريطة أن تظل على مسيحيتها وأن تمارس شعائر دينها بحرية كاملة. فلما علم بأمر البعثة أرسل يرحب بها وحضر للقائهم ووافق على أن ينتقلوا للإقامة في مدينة كانتربرى Canterbury ــ عاصمة كنت وأكبر مدن مملكته وكانت تقيم فيها زوجته برثا ــ كما سمح لهم بالتبشير بين شعبه بحرية تامة[١١٦]. وشجعهم ذلك على ممارسة نشاطهم التبشيرى والعمل ليل نهار وحققوا

---

١١٤ - Baedae, Historica,Vol,I, 103-105; Ian Wood, Augustine , 16.

١١٥ - لمعرفة نص الرسالة، انظر :

Baedae, Historica,Vol,I, 105-106.

١١٦ - Baedae, Historica,Vol,I, 105-113 ; Ian Wood, Augustine , 3; Logan, Church, 52. Hutton, Gregory the Great, 254-255; Moorhead, Gregory, 8.

نجاحاً كبيراً في نشر المسيحية بين الإنجليز. ففى عام ٥٩٨م كتب البابا جريجوري الأول رسالة لبطريرك الإسكندرية أيولوجيوس Eulogius يهنئه باهتداء الهراطقة ويخبره باهتداء الشعب الإنجليزى قائلاً : " إن الشعب الإنجليزى الذي يعيش في ركن من العالم كان ما يزال كافراً يعبد العصى والحجارة، لكن بفضل صلاتك وبتوفيق الرب أرسلت أسقفا لهدايتهم ..... والآن وصلتنى للتو رسائل عن سلامته وعن نجاح عمله .... فقد ذكر لى أن أكثر من عشرة آلاف انجليزى تم تعميدهم على يديه هو وزملائه حتى الآن " [١١٧]. ولاشك في أن هذه الأعداد قد تزايدت لاسيما في عام ٦٠١م، وهو العام الذي يرجح أن إثلبرت تم تعميده فيه، وكان تعميد الملك ــ مثلما كان يحدث في أي مكان آخر ــ يتبعه تعميد وتحول الطبقة الأرستقراطية إلى المسيحية، لكن يبدو أن الزيادة في أعداد المهتدين الجدد، لم يرض عنها البابا وكانت أقل بكثير من توقعاته، نتيجة لقلة الجهد الذي بذله إثيلبرت ــ من وجهة نظر البابا ــ لإكمال تنصير شعبه [١١٨]؛ ذلك أن جريجوري الأول كان يتوقع أن يفرض اثلبرت ــ كما فرض الإمبراطور الورع قسطنطين الأول المسيحية على الإمبراطورية الرومانية ــ المسيحية على شعبه ،إلا أن إثلبرت لم يجبر أحداً على اعتناق المسيحية، وكل ما فعله فقط هو أنه قرب منه المؤمنين الجدد وتودد إليهم، على اعتبار أنهم جميعاً أبناء دين واحد، ولم يفرض المسيحية على أحد من أبناء شعبه [١١٩].

ولم يكن أمام البابا إلا أن يستمر في دعم البعثة، فأرسل رسالة طويلة إلى أوغسطين أجاب فيها عن أحد عشر سؤالاً سبق أن وجهها له أعضاء البعثة عن أشياء

تجدر الإشارة إلى أن بريطانيا عندما جاءتها بعثة أوغسطين كان ما يزال بها بعض المسيحيين من عصر الرومان، وشكل هؤلاء فئة من فئات الشعب الإنجليزى، لمزيد من التفاصيل، انظر،

Logan, Church, 52.

١١٧- Sancti Gregorii Magni , Epistolarum , VIII ,Ep.XXX , Cols. 931-934 ; Ian Wood , Augustine, 3;Logan, ,Church, 52.

"*quia dum gens Anglorum in mundi angulo posita in cultu lignorum ac lapidum perfida nuncusque remaneret.....plus quam decem millia Angli ab eodem nuotiati sunt fratre et coepiscope nostro baptizati*…."

انظر، Sancti Gregorii Magni, Epistolarum ,VIII ,Ep.XXX,Col.932.

١١٨- Baedae, Historica,Vol.I, 115 ; Markus,A., "Gregory the Great's Europe"In**, RHS ,** Fifth Series , Vol. 31 (London ,1981) , 25 ; Logan, Church, 52.

١١٩- Baedae, Historica,Vol.I, 115; Markus,Europe, 25.

رأوا أنها ضرورية، ثم عزز هذه البعثة بأخرى هى بعثة ميللتوسMellitus عام ٦٠١ م، واختار مدينة لندن، لمكانتها التاريخية في العصر الرومانى، كى تكون مقراً للكرسى الرسولى هناك. وسعى أوغسطين من جانبه لتكريس اثنى عشر أسقفا، وأرسل أسقفا إلى مدينة يورك York[١٢٠] .

وظل أوغسطين يبذل قصارى جهده وهو وأعضاء بعثته حتى نجحوا في تحويل إنجلترا إلى المسيحية الكاثوليكية. إلا أن المؤرخ دونالد لوجان Donald Logan، أخذ على البابا أمرين : الأول، أن اختياره لمدينة لندن كى تكون مقراً للكرسى الرسولى، إن دل على شيء فإنما يدل على عدم معرفة البابا أن الأمور تغيرت وأن المدينة الرومانية العتيقة أصبحت شبه مهجورة لصالح مستوطنه أنجلو سكسونية قريبة منها. الأمر الثاني، أن خططه التنظيمية للكنيسة الإنجليزية في تلك الفترة المبكرة، كانت سابقة لأوانها، ولذلك ارتد الكثيرون إلى الوثنية بعد فترة قصيرة من وفاة أوغسطين عام ٦٠٤م، وكان من بين هؤلاء المرتدين آيثلبرت Aethelbert، ابن إثلبرت وخليفته في الحكم. وبالتالى فالحكم النهائى على هذه البعثة، أن نجاحها كان محدوداً [١٢١].

رغم وجاهة رأى المؤرخ لوجان، لا يمكن ــ بشكل أو بآخر ــ بخس بعثة أوغسطين فضلها على الإنجليز وعلى شمال أوربا ــ فيما بعد ــ عندما نبتت البذرة التي غرستها في إنجلترا وأتت ثمارها على المدى البعيد، متمثلاً ذلك فيما قامت به البعثات الإنجليزية والألمانية ــ بالتبعية في القرن الثامن الميلادى ــ من نشر المسيحية الكاثوليكية في أجزاء كثيرة من أوربا، وتنصير البرابرة في شمال وشرق ألمانيا، من الدانيين Danes والنرويجيين Norwegians والسويديين Swedes والبولنديين Poles والمجريين Hungarians وغيرهم، وجعلتهم تابعين لأسقف

١٢٠- Sancti Gregorii Magni,Epistolarum ,XI,Ep.LXIV,Cols.1183-1200;Hodgkin,Italy , V, 327; Hutton,Gregory the Great, 255-256.

تناولت أسئلة البعثة عدداً من الموضوعات منها تقسيم دخل الكنيسة، وعقوبة حلق الشعر، ودرجات المصاهرة التي تمنع الزواج، وترسيم الأساقفة، وحضور العشاء المقدس، وغير ذلك من الموضوعات التي رأت البعثة ضرورة إيضاحها للمسيحيين الجدد، لمزيد من التفاصيل عن هذه الأسئلة وإجابات جريجوري عنها، انظر :

Sancti Gregorii Magni, Epistolarum ,XI,Ep.LXIV,Cols.1183-1200;Baedae,Historica, 115-152.

١٢١- Logan, Church, 53,55.

روما [١٢٢]. وكان ذلك مكسباً عظيماً وثمرة من ثمار جهود البابا جريجوري الأول، حينما نجح على المدى البعيد في مد نفوذ الكنيسة الكاثوليكية على حساب نظيرتها الأرثوذكسية الشرقية [١٢٣].

أما في أسبانيا، التي كانت قد نبذت الأريوسية ودخلت حظيرة الكاثوليكية قبيل ثلاث سنوات[١٢٤] من تولى جريجوري الأول البابوية، فلم يكن الاتصال بين ليندر ــ أسقف أشبيلية ــ وجريجوري الأول على قدر مستوى الصداقة القديمة بين الرجلين، وما نعلمه هو أن البابا بعد ترسيمه أرسل رسالة إلى ليندر يعبر فيها عن سعادته بتحول ابن أخيه ريكارد Recard (٥٨٦-٦٠١م) ملك القوط الغربيين إلى العقيدة الكاثوليكية، وأوصاه أن يحذره من حيل الشيطان [١٢٥] ،علاوة على ذلك أرسل البابا الراهب سيرياكوس، الذي أشرف على إصلاحات الكنيسة في غالة وشارك في أحد المجامع الدينية هناك، برسالة إلى أحد رجال بلاط ريكارد البارزين، وهو كلاوديوس Claudius، لأمر خاص، في وقت كان ريكارد يتوقع من البابا اهتماماً أكثر من ذلك، ولم يرد على رسالته إلا في العام التاسع من بابويته واعتذر عن تأخره في الرد، بسبب انشغاله بشئون مملكته وبمواجهة ثورة الأريوسيين. ثم أرسل عدداً من الرهبان يحملون الهدايا إلى البابا، لكن أتت عليهم أمواج البحر وهم في طريقهم لإيطاليا وعلى مقربة من شواطئها ولم ينجوا من الغرق إلا بصعوبة، مما جعل ريكارد يرسل مرة أخرى

---

١٢٢ - Oliver.J. Thatcher and Edgar Holmes Mcneal, Asource Book for Mediaeval History - selected Documents Illustrating The history of Europe in the Middle age, New York-D, 92.

١٢٣ - لمزيد من التفاصيل عن بعثة أوغسطين، انظر :
Baedae, Historica,Vol,I, 101-123; Ian Wood, Augustine, 1-17.
انظر أيضا، إسحق عبيد، مدينة الله، ص ١٨٢-١٨٥.

١٢٤ - كان ريكارد Recard (٥٨٦-٦٠١م) ملك القوط الغربيين قد أعلن في ٥٨٧م وبعد عشرة شهور من توليه الحكم عام ٥٨٦م، اعتناقه الكاثوليكية لإنهاء التوتر القائم بين القوط الأريوسيين والرعايا الكاثوليك، انظر،إبراهيم على طرخان، دراسات في تاريخ أوربا في العصور الوسطى ــ ١ــ دولة القوط الغربيين، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ١٠٦.

١٢٥ - Sancti Gregorii Magni, Epistolarum ,I,Ep.LXLIII,Cols.496-498 ; Hodgkin, Italy ,V, 323-324; Pastoral Rule, 394; Hutton, Gregory the Great, 259-260.

رسولاً يحمل كأساً من الذهب المرصع بالجواهر إلى خزانة الكرسى الرسولى ومعها عبارات تعبر عن تعظيمه وحبه للبابا بعدما سمع عنه من عمه ليندر [١٢٦].

لكن يبدو أن ريكارد، الذي كان معجباً بالحضارة البيزنطية ويميل للأخذ بها، كانت تحركه تجاه البابا دوافع سياسية؛ ذلك أنه كان يرغب في تعامله مع الإمبراطور البيزنطي أن يستند إلى نص معاهدة سابقة ــ ظناً منه أنه توجد منها نسخة محفوظة في أرشيف الكرسى الرسولى بروما ــ بين الإمبراطور جستنيان الأول وأحد ملوك القوط الغربيين الأوائل، فأجابه البابا أن نيران حريق ــ زمن جستنيان ــ أتت على أرشيف الكرسى البابوى ويصعب أن نجد ورقة واحدة مما طلبت، ثم أخذ يسديه النصح عوضاً عن عدم تلبية طلبه [١٢٧].

بيد أن البابا جريجوري الأول كان حريصاً على ألا يقحم نفسه ــ لسبب أو لآخر ــ في العلاقات بين القوط الغربيين والقسطنطينية، ولم يقم بأى محاولة لفرض سلطانه على الكنيسة الأسبانية، وكان قانعاً بتحول ريكارد وأتباعه إلى الكاثوليكية، تاركاً له ولأساقفته إدارة شؤون بلادهم وكنيستهم بمعرفتهم، مطمئناً إلى انتشار فكره الديني في أسبانيا من خلال كتابه " القاعدة الرعوية "، الذي انتشر في كل بلدان الغرب الأوروبي [١٢٨].

وخلاصة القول، إن القارئ للدور الديني للبابا جريجوري الأول، سيجد أن جهوده لم تكن قاصرة على مناطق بعينها، وإنما امتدت لتشمل كل أوربا، ومثلما ساهم البابا في نجدة أبناء العالم المسيحى في بقاع شتى، ساهم أيضاً في حل كثير من مشاكل الكنيسة في أماكن متفرقة. يتضح ذلك من سعيه الدءوب لإنهاء انشقاق أسقف أكويليا في شمال إيطاليا، وإصراره على الحفاظ على سلطته في إقليم الليريا Illyricum (رومانيا وألبانيا حالياً) في مواجهة البيزنطيين، وتدخله لحسم مشكلة انتخاب أسقف

---

١٢٦ - Sancti Gregorii Magni, Epistolarum ,IX,Ep.LXI,Cols.997-998 Pastoral Rule, 394 ;- Hodgkin,Italy ,V , 324.

١٢٧ - Sancti Gregorii Magni, Epistolarum ,IX,Ep.CXXII,Cols.1052-1056; Hodgkin,Italy , V , 325.

١٢٨ - Hutton, Gregory the Great, 260; Bréhier,Aigrain., Grégoire le Grand, 27-30.

لمزيد من المعلومات عن كتاب القاعدة الرعوية، انظر:

Pastoral Rule, 417-527.

سالونى Salone، وفصل كنيسة طيبة Thebaعن لاريسا Larissa [١٢٩]. فضلاً عن ذلك، كان البابا حريصاً على إقامة علاقات طيبة مع مختلف الولاة والأساقفة، فكان يراقب سلوكهم ويوافق على نشاطهم ويعمل على توجيههم، وكانوا يكتبون إليه من مختلف أرجاء أوربا، وكان يتدخل ممثلاً عن بعضهم أو ضده لدى القسطنطينية، ودائماً ما حرص على أن تكون هناك حدود واضحة لنطاق عمله وعمل هؤلاء الأساقفة. وقد ظل البابا يقوم بالدور المنوط به ويتحمل أعباء منصبه طوال ما يقرب من أربع عشرة سنة دون كلل أو ملل، إلى أن أصابته الحمى وتوفى على أثرها في الحادى عشر من شهر مارس عام ٦٠٤م، ودفن عند الطرف الشرقى من بازيليكا القديس بطرس في روما [١٣٠] .

الخـــاتمـــــة:

أخيراً، ما الذي يمكن أن نخرج به من القراءة في الدور السياسي والديني للبابا جريجوري الأول ؟

أولا : إن البابا جريجوري الأول كان صاحب شخصية غامضة جمعت بين المتناقضات، ففى الوقت الذي كان فيه دبلوماسياً لبقاً وسياسيا حاذقاً وإدارياً كفء وله فكره ورؤيته الثاقبة، كان من ناحية أخرى ــ من خلال كتاباته ــ رجل لاهوت وراهب ساذج وعنيد يؤمن بالخرافات والخزعبلات وبالقديسين وبالمعجزات، ولا يمكن تفسير ذلك إلا في ضوء خلفية جريجوري الأول وطبيعة العصر الذي عاش فيه .

ثانيا : نجح البابا جريجوري الأول في أن يضع الأساس المتين الذي بُنى عليه نفوذ بابوية روما في الجانبين الديني والدنيوى على السواء، بعدما بذل جهوداً مضنية لاستقلال الكنيسة الغربية عن زميلتها الشرقية من الناحية الدينية، وبعدما رسخ استقلال

---

[١٢٩] - للمزيد من المعلومات عن تدخل البابا لإنهاء المشاكل في كل من أكويليا والليريا ولاريسا وغيرها من المناطق الأخرى، انظر:

Bréhier,Aigrain., Grégoire le Grand, 57-60; Hutton,Gregory the Great, 254.

[١٣٠] - Baedae, Historica,Vol,l, 199; Maxwell-Stuart, , Chronicle of the Popes,(London, 1997) , 50;Hutton, Gregory the Great, 248;Hodgkin,Italy,V, 448-449. .

البابوية من الناحية السياسية، وبعدما حافظ على استقلال روما ــ هى الأخرى ــ وسط ما حدث من مد جرمانى وتراجع بيزنطى وتشابك للعالمين الأوروبي الجرمانى والشرقى البيزنطي على التراب الإيطالي.

ثالثا : رفض البابا أي شيء يتعارض مع أسبقية روما، حتى ولو كان لقباً فخرياً ــ كلقب العالمى ــ يمنح لبطريرك القسطنطينية، وحرص على أن يظل الكرسى البابوي هو الجهة الوحيدة المعنية بالفصل في قضايا الأساقفة وأنظمتهم، وقبول الاستئناف ضد هذه القضايا، وهو ما جعل الأساقفة والأمراء يشعرون بنفوذ روما في شخص أسقفها الذي كان أعلى مقاماً من كل أساقفة المملكة المسيحية. لكن أدت هذه المكانة السامية إلى استمرار الصراع بين البابا وبطريرك القسطنطينية، وبالتالى استمرت الهوة بين كنيستى روما والقسطنطينية في الاتساع، وقد مهد التباعد بين الكنيستين الطريق لانفصال غرب أوربا عن شرقها في العصور الوسطى .

رابعا : تمتعت البابوية في عهد جريجوري الأول بمكانة سياسية كبيرة جاءت تتويجاً لسنوات طويلة من الكفاح، غير أن عملها بالسياسة لم يكن هدفاً بقدر ما كان فرصة هيئتها الظروف للتأكيد على سموها وعلو مكانتها، ولذلك فأي تفسير لمشاريع البابا جريجوري الأول أو دوافعه من منظور سياسى بحت، هو عار من الصحة تماما ويتعارض مع شخصيته ومبادئه السامية وسياسته الحكيمة، التي كانت قائمة على تقريب الأطراف المتنازعة وتفادى سفك الدماء، عكس سياسة الإمبراطور موريس، الذي كان يحلم بالسيطرة على اللومبارديين ولو بإفنائهم وإخضاع إيطاليا بأكملها لسيادته، وثبت بمرور الزمن أن كل نجاح في هذا الصدد بإيطاليا ينسب إلى جريجوري الأول دون غيره .

خامسا : حازت الإمبراطورية البيزنطية على أكبر قدر من اهتمام جريجوري الأول؛ حيث كان يرى أنها قوة عظيمة الشأن لها قدسيتها مثل الكنيسة، كما كان يؤمن بسمو أباطرتها واختلافهم عن ملوك البرابرة، فالأباطرة يحكمون شعوباً من الأحرار، أما البرابرة فيحكمون شعوباً من الرقيق. وقد وضح هذا الاختلاف في رسائله عند مخاطبته للجانبين : ففى الوقت الذي كان يتوقع أن ينفذ حكام الغرب من البرابرة أوامره، كان يخاطبهم في رسائله بلفظة "أبنائى"، وعلى العكس من ذلك في رسائله

لأباطرة الشرق، كان إذا خاطب أحدهم تواضع له وأظهر نفسه على أنه أحد رعايا الإمبراطور، بادئاً رسالته إليه بلفظة " سيدنا المعظم ". وقد حرص البابا على إظهار هذا الاحترام للإمبراطور البيزنطي حفاظا على السلام مع القسطنطينية بالدرجة الأولى، حتى يضمن للبابوية حرية متابعة أهدافها في أوربا الغربية .

سادسا : اكتسبت فترة بابوية جريجوري الأول أهميتها الكبيرة، من جرأة البابا غير المسبوقة على فتح المجال الغربى الرحب بأممه شبه البربرية، أمام تأثيرات الكنيسة الكاثوليكية، ووصلت هذه التأثيرات في النهاية للعديد من المناطق النائية، وبدا ذلك وكأنه فتح رومانى جديد امتداداً للمجد الرومانى السالف أو كأنه نجاح آخر في توحيد الغرب على طريقة روما القديمة.

سابعا : كانت معالم الطريق واضحةً تماماً أمام خلفاء جريجوري الأول عند وفاته عام ٦٠٤م، غير أنه لم يتمتع واحد منهم بذكائه ولا رؤيته أو حكمته، كى يواصل السير على الدرب الذي رسمه لهم، وكان ذلك سبباً في عدم حدوث تصادم بينهم وبين الأباطرة البيزنطيين، باستثناء البابا مارتن الأول Martin I(٦٤٩-٦٥٥م)، الذي أمر الإمبراطور قنسطانز الثانى Constans II (٦٤١ــ٦٦٨م) بالقبض عليه عام ٦٥٣م، حينما فكر أن يحذو حذو جريجوري الأول،ثم نفاه ليموت في منفاه بالقرم عام ٦٥٥م، وتلك قضية أخرى.

قائمة المصادر والمراجع ومختصراتها

أولاً : المصادر الأجنبية :

Baedae , **Historica** , Baedae,Opera Historica , with An English Translation By J.E. King , M.A., In Two Volumes , I , Ecclesiastical History Of the English Nation , Books I-III (Cambridge , 1962).

Duchesne , L.,Duchesne , Le Liber Pontificalis , Vol.3 (Paris , 1955)

Evagrius Scholasticus,Evagrius Scholasticus,The Ecclesiastical History of Evagrius Scholasticus , Trans with An Introduction By Michael Whitby, (Liverpool , 2000)

Gregory the Great, Gregory the Great ,II, Gregory Ephraim Syrus, Aphrhat,By Philip Schaff , In **NPNF**, 213, New York,2004.

Gregory,**The Franks**,Gregory of Tours,The History of The Franks, Trans with an Introduction By Dalton,O, Vol.II (Oxford,1927).

Joanne Diacono **Vita** Joanne Diacono, Sancti Gregorii Magni Vita , **PL**,ed Migne.75,(Paris,1849) Cols.60-242.

Jordanes , The origin and deeds of the Goths , In English version, By Charles C. Mierow , (Princeton, 1908) .

Oliver.J. Thatcher and Edgar Holmes Mcneal,Asource Book for Mediaeval History , selected Documents Illustrating The history of Europe in the Middle age,(New York, N-D).

Paul the Deacon, **Lombards** Paul the Deacon , History of the Lombards , translated by William Dudley Foulk, (Philadelphia,1974).

Paulo Diacono, **Sancti Gregorii** Paulo Diacono , Sancti Gregorii Magni Vita , **PL**, ed Migne.75, (Paris,1849),Cols.41-60.

Pastoral Rule The Book of Pastoral Rule, and Selected Epistles of Gregory the Great Bishop of Rome,trans .with Introduction,Notes,and Indices,By James Barmby,In NPNF,212,Leo the Great,Gregory the Great,ed Philip Schaff, (New York,2004).

PL Patrologia Latina,ed Migne (Paris,1849).

Sancti Gregorii,Magni, **Epistolarum** Sancti Gregorii,Magni,Registri Epistolarum **PL**, ed Migne T.3, Vol.77 (Paris , 1849), Cols.441-1327.

The Lombard laws The Lombard laws, trans.with an Introduction by K.F.Drew, Foreword by Edward Peters (Pennsylvania , 1996 **).**

The Popes The Book of The Popes(Liber Pontificalis) I,to the Pontificate of Gregory I, trans with an Introduction By Louise Ropes Loomis,(New York,1916) .

Theophanes, Theophanes Confessor,The Chronicle of Theophanes Confessor, Byzantine and Near Eastern History A284- 813,Trans with Introduction and Commentary by Mango,C and

Scott,R ,With the assistance of Greatrex.G, (Oxford, 1997) .

ثانياً : المراجع الأجنبية :

Barry, **Monarchy**	W., Barry , The Papal Monarchy , From St. Gregory the Great to Boniface VIII (590-1303), (London , 1902) .
Bréhier, Aigrain, **Grégoire le Grand**	R.,Bréhier, L., Aigrain, Grégoire le Grand les États Barbares et la Conquête Arabe(590– 757) (Bloud & Gay , 1947).
Bréhier,	L., Bréhier,Le Mond Byzantin ,Vie et Mort de Byzance,(Paris,1948).
CHR	The Catholic Historical Review **.**
Logan,**Church**,	D, Logan,F., A history of the Church in the Middle Ages, (London, 2002).
Dudden, **Gregory**,	F.H.,Dudden, Gregory The Great ,his Place In history and Thought,2 Vols, (London,1905).
Gregorovius,**Rome**	F.,Gregorovius,History of the City of Rome in the Middle Ages, Trans. From the Fourth German edition By Mrs Gustavus W. Hamilton,Vol.II.A.D.568-800,(London,1911).
Hodgkin, **Italy**	T., Hodgkin, Italy and her Invaders,553 - 600 (Oxford, 1916) .
Hutton, **Gregory**	H., Hutton, "Gregory the Great "**CMH**,ed J.B. Bury,Vol.II(Cambridge,1913),PP.235-262.
Ian Wood,**Augustine**	Ian Wood , " The Mission of Augustine of Canterbury to the English"In **Sp**,Vol. 69,No.1. (Cambridge, 1994), pp.1-17.
JQR	The Jewish Quarterly Review(Pennsylvania , 1933) .
KatzSource,	S., KatzSource,"Pope Gregory the Great and the Jews" In, **JQR**, New Series,Vol. 24, No.2 (Pennsylvania, 1933), pp. 113-136.
Markus**, Europe**	Markus,R. A. ,"Gregory the Great's Europe" In, **RHS**, Fifth Series, Vol. 31 (London, 1981), PP.21-36 .
Maxwell-Stuart	P., Maxwell-Stuart , Chronicle of the Popes , (London , 1997).

Moorhead,**Gregory**	J.,Moorhead, Gregory the Great ,(New York , 2005) .
Moorhead,	J.,Moorhead, "The Byzantines in the West in the Sixth Century " In, **NCMH** , Vol. 1c.500 - c.700 (Cambridge,2008) PP.118-139.
NCMH:	The New Cambridge Medieval History (Cambridge, 2008).
NPNF	Nicene and Post-Nicene Fathers .
ODB	Oxford Dictionary of Byzantium .
Philip Schaff, **Christian**	Philip Schaff , History of the Christian Church ,Vol. IV ,Mediaeval Christianity from Gregory I to Gregory VII,(Dallas,1998).
RHS	Royal Historical Society.
SP	Speculum .
Walter J. **Women**	Wilkins,Walter J."Submitting the Neck of Your Mind": Gregory the Great and Women of Power, In**, CHR** , Vol. 77, No. 4 (Washington, 1991), PP. 583-594.
Walter Ullmann, **Papacy**	Walter Ullmann,A short history of the Papacy in the Middle Ages (London ,2003).

ثالثاً : المراجع العربية والمعربة :

إبراهيم على طرخان : دراسات في تاريخ أوربا في العصور الوسطى ــ ١ــ دولة القوط الغربيين، القاهرة، ١٩٥٨م .

أسامة زكى زيد : **اللومبارديون** اللومبارديون وعلاقاتهم السياسية بالقوى المجاورة في ضوء كتابات المؤرخ بولس الشماس (٥٦٨ـــ ٧٧٤م)، الإسكندرية، ١٩٨٧م .

أسحق عبيد : **مدينة الله** الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية مع دراسة في " مدينة الله"، القاهرة، د ــ ت .

اسمت غنيم : دراسات في تاريخ العصور الوسطى، الآفار، الإسكندرية، ١٩٩١م .

السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٦٠م.

أومان : **الإمبراطورية** الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى طه بدر، القاهرة، ١٩٥٣م .

رأفت عبد الحميد : **قواعد الدبلوماسية** قواعد الدبلوماسية البيزنطية ص ١٠٣ ــ ١٤١، في كتاب : بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، ط ١ القاهرة ١٩٩٧م .

رأفت عبد الحميد : **السمو البابوى** " السمو البابوي بين النظرية والتطبيق " في كتاب : الفكر السياسي الأوربي في العصور الوسطى، القاهرة، ٢٠٠١م

سعيد عاشور : **أوربا** تاريخ أوربا في العصور الوسطى، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٧٦م .

طارق منصور،هانئ البشير: مدخل إلى تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ،الرياض، ٢٠٠٧م .

محمود الحويرى : **اللومبارديون** اللومبارديون في التاريخ والحضارة (٥٦٨ــ٧٧٤م)، القاهرة ١٩٨٦م .

نورمان ف. كانتور : **التاريخ الوسيط** التاريخ الوسيط، قصة حضارة : البداية والنهاية، القسم الأول، ترجمة وتعليق دكتور قاسم عبده قاسم، ط ٥، القاهرة، ١٩٧٩م .

هــ .و. ديفز : **أوربا** أوربا في العصور الوسطى، ترجمة الدكتور / عبد الحميد حمدى محمود، ط ١، الإسكندرية، ١٩٥٨م .

وسام عبد العزيز فرج : دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية ــ١ــ (٣٢٤ــ١٠٢٥م)، الإسكندرية، ١٩٨٢م .

وفاء عبد الحميد:**موريس** الإمبراطور موريس (٥٨٢ــ٦٠٢م) أحوال الإمبراطورية البيزنطية في عهده، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، كلية الآداب ــ جامعة عين شمس، ١٩٨٨م .